الفصل الثالث

الحركات الاستقلالية
فى المشرق العربى

obeikandl.com

obeikandl.com

عوامل ضعف الدولة العثمانية ومظاهره:

بلغت الدولة العثمانية أقصى اتساعها في عهد السلطانين سليم الأول وسليمان القانوني، فامتدت امتداداً واسعاً في ثلاث قارات هي آسيا وأوربا وإفريقيا، ولكن منذ عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦م-١٥٧٤م) بدأت علامات الضعف العثماني تظهر بوضوح ، فتجمدت حدود الإمبراطورية ثم أخذت تنكمش بعد ذلك[١].

ويعزى تدهور الدولة العثمانية إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية.

أولاً العوامل الداخلية:

١ - تعاقب على عرش الدولة بعد السلطان سليمان القانوني مجموعة من السلاطين كانوا يفتقرون إلى الكفاية والمقدرة والدراية بأساليب حكم الإمبراطورية العثمانية، وقد احتجب هؤلاء السلاطين الضعاف في قصورهم وأهملوا قيادة الجيوش في الحروب، وتسربت مقاليد الأمور إلى أيدي الحريم السلطاني، وعاشوا حياة ترف وبذخ، وأسرفوا في إنفاق الأموال الباهظة على قصورهم وعلى حفلات الزواج. هذا فضلاً عن ابتعادهم عن الدين وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، والتأثر بالغرب الأوربي.

٢- ازدياد اعتماد الدولة على الإنكشارية منذ عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١م-١٤٨١م)، مما ترتب عليه إهمال الجنود الإقطاعيين من السباهية الفرسان، ولم يظهر هؤلاء كفاءة عسكرية أمام الجنود الأوربيين، وذلك لعدم أخذهم بأساليب القتال الحديثة إعداداً وتنظيماً

(١) د/ السيد رجب حراز، العالم العربي في التاريخ الحديث، القاهرة ١٩٨١، ص٨٧.

وعتاداً، هذا فضلاً عن أن الدولة باعت أراضي الإقطاع العسكري إلى أفراد غرباء عن الجيش، ونجم عن هذا كله أن تناقصت أعداد الفرسان تناقصاً خطيراً في الجيش العثماني، وفي الوقت نفسه ازدادت قوات الإنكشارية زيادة كبيرة وشكلت عبئاً ثقيلاً على الدولة[١].

٣- فساد الإنكشارية، وذلك حين سمحت الدولة لأفراد فرق الإنكشارية بالزواج في أواخر القرن السادس عشر، مما ترتب عليه أن أصبح الانتماء إلى الإنكشارية وراثياً دون أي اعتبار للكفاءة العسكرية، ونتيجة لذلك انضم إلى الإنكشارية خليط من العمال وأصحاب الحرف وغيرهم من فئات أخرى كقطاع الطرق والمتسترين، وكان الدافع إلى هذا هو الحصول على الإمتيازات العسكرية التي كانت تغدق على أفراد هذه الفرق بالذات كالمرتبات والبدلات والترقيات. وعلاوة على ذلك فقد أجازت الدولة لهم ممارسة التجارة وغيرها من أنواع النشاط، وكانوا لا يقيمون في الحصون والثكنات بقدر ما يقيمون خارجها، ففقدوا صفاتهم العسكرية، وتدخل رؤساؤهم في الشئون السياسية فكانوا يطالبون بعزل السلطان أو قتل كبار موظفي الدولة ويرضخ السلطان لطلباتهم، وازداد تمردهم بعد التحاق السكان المحليين بصفوفهم، ففي استانبول كان أول ضحاياهم البارزين السلطان عثمان الثاني الذي عزلوه ثم قتلوه عام ١٦٢٢م، ومارسوا كثيراً من التعسف في الولايات بشكل أرهق أهلها لما ابتزوه منهم من مال[٢].

٤ - الأزمة الاقتصادية، فقد ارتبك الاقتصاد العثماني نتيجة لتوقف

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة، ١٩٨٤، ص٧٥.
(٢) د/ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٨٠، ص١٢٠.

الفتوحات العثمانية وانقطاع مواردها بالتالي، وذلك بسبب تزايد أعداد الجنود الإنكشارية والموظفين الذين يتقاضون المرتبات، وقد تناقصت واردات الدولة بسبب فساد نظام الالتزام وجباية الضرائب، كما تأثر الاقتصاد العثماني بسبب نقص واردات الرسوم الجمركية. وأدى ذلك كله إلى انهيار قيمة النقد العثماني وهو الأقجة الفضية، وارتفاع سعر الذهب وندرة وجوده [١].

ثانياً - العوامل الخارجية:

لاشك أن العوامل الداخلية قد مهدت الطريق لعوامل خارجية تضافرت معاً وأدت إلى اضمحلال الدولة وتدهورها، فإن التوازن القديم بين الدولة العثمانية والدول الأوربية- والذي كان في صالح الدولة العثمانية- قد تغير لصالح الدول الأوربية بعد تحولها من دول إقطاعية إلى رأسمالية تجارية، ثم رأسمالية صناعية عقب الانقلاب الصناعي، حتى أصبح ميزان القوى بشكل نهائي في صالح الدول الأوربية[٢].

١- **الإمبراطورية الرومانية المقدسة :** واجه العثمانيون في أوروبا خصماً عنيفاً هو شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (١٥١٩م-١٥٥٦م)، واضطروا إلى عقد معاهدة مع أسرة الهابسبورج النمساوية بعد أن تم عقد حلف صليبي ضد الدولة العثمانية لوقف هجومها على فيينا عاصمة النمسا عام ١٦٨٣م، واندفع النمساويون واحتلوا المجر واليونان، وعُقد صلح كارلوفيتز عام ١٦٩٩م تخلى فيه العثمانيون عن كل المجر وترانسلفانيا ومودوليا، وتخلوا بعد ذلك عن مناطق

(١) د/ عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٤٩.
(٢) د/ أميل توما، فلسطين في العهد العثماني، عمان، ١٩٨٤، ص ١٣-١٥.

أخرى[1].

٢- **البنادقة:** انحصر الصراع بين البنادقة والعثمانيين في المجال البحري فقط، وقد اضطر العثمانيون إلى التخلي عن جزيرة مالطة عام ١٥٦٦م لكنهم احتلوا قبرص عام ١٥٧٠م قبل أن يحطم أسطول غربي ضم قوات من البندقية وأسبانيا والبابوية الأسطول العثماني في معركة لبانتو ١٥٧١م، وفقد العثمانيون في أعقاب هذه المعركة السيطرة البحرية في المتوسط[2].

٣- **روسيا القيصرية:** ظهر عداء روسيا القيصرية للدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر، وكان هدفهم السيطرة على البحر الأسود، وعندما فرض العثمانيون نفوذهم على شبه جزيرة القرم أسرع الروس بفرض نفوذهم على اصطراخان وقازان في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وفي عام ١٦٩٦م استولى القيصر بطرس الأكبر على بعض مناطق أزوف، واستمرت الحروب بين الدولتين لكي تبسط روسيا سيطرتها على بحر أزوف وجزيرة القرم والبحر الأسود، وظهر الأسطول الروسي في البحر المتوسط فاتصلت روسيا بالعناصر السلافية الثائرة في أوروبا وشحنتها، كما شحنت بعض الحركات المناوئة في الولايات العربية، وانتهت الحرب بمعاهدة كوجك قينارجي عام ١٧٧٤م، ونتج عنها حصول روسيا على الأراضي التي كانت تطمع في الاستيلاء عليها، ونالت كذلك حقوقاً تجارية وبحرية هامة، فأصبح من حقها إنشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية، وصار لرعاياها حق الاتجار في

(١) د/ عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٢) د/ رأفت الشيخ، في تاريخ العرب الحديث، القاهرة، ١٩٨٩، ص٤٥.

الولايات العثمانية، وحصلت روسيا على حق مرور السفن في مضيقي البسفور والدردنيل[١].

٤ - **الدولة الصفوية :** واجهت الدولة العثمانية الصفويين وتوقفت الجيوش العثمانية عند حدود العراق مع فارس ، ولم تستطع التوغل أبعد من ذلك، واستطاع الصفويون أن يحتلوا بغداد وأجزاء أخرى من العراق عام ١٦٢٣م، ولم يتمكن العثمانيون من طردهم منها إلا عام ١٦٣٨م، وانحسر بعد ذلك الخطر الصفوي عن العراق بعد أن قضى الأفغان السنة على الحكم الصفوي في فارس عام ١٧٢٢م، ثم تجدد بعد ذلك الصراع العثماني الفارسي حتى عقدت معاهدة أرضروم ١٨٤٧م التي تم بموجبها تحديد الحدود بين الدولتين وجعل العراق ولاية عثمانية[٢].

وكان لضعف السلطة العثمانية واضطراب أحوال الدولة صدى ملموس في الولايات العربية ، فبدأت نظم الحكم العثماني فيها تتعرض للانهيار نتيجة لاختلال التوازن بين السلطة المركزية ممثلة في الباشا العثماني من جهة، وبين الحاميات العثمانية والعصبيات المحلية من جهة أخرى، وما صاحب ذلك من حدوث ثورات وتمردات هددت سلطان العثمانيين بالزوال[٣].

ونتيجة لذلك قامت محاولات لتركيز السلطة في أيدي بعض الزعماء المحليين، وذلك بسبب التدهور الذي وصلت إليه الدولة العثمانية. فقد حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة

---

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص ٩٠-٩١.

(٢) د/ عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص٧٥.

(٣) د/ عبد الرحيم عبد الرحمن، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٨٤، ص٣٥.

فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (المماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، محمد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، علي بك الكبير في مصر)[١].

أولاً : حركة الأمير فخر الدين المعني

استولى العثمانيون على لبنان عام ١٥١٦م، وبالإضافة إلى المناطق الجبلية من سوريا وفلسطين فإن وضع لبنان الخاص كان يستدعي من الدولة العثمانية تعاملاً خاصاً، ذلك أنه كان هناك تركيب اجتماعي قسم السكان إلى قيسية ويمنية، وتركيب ديني يقسمهم إلى مسلمين ومسيحيين، بل كان التقسيم الديني أكثر تفصيلاً، فوجدنا بين المسلمين سنة وشيعة ودروزاً، ووجدنا بين المسيحيين موارنة كاثوليك وأرثوذكس وغيرهم. فلا عجب أن يكون لبنان أول قطر عربي يثور ضد الحكم العثماني[٢]، وذلك لأن جغرافية المنطقة تساعد على ذلك .

فعندما فتح السلطان سليم الأول بلاد الشام كان الأمراء اللبنانيون قد انقسموا إلى فريقين: فريق منهم وعلى رأسه الأمراء التنوخيون انحازوا إلى المماليك، أما الفريق الآخر بزعامة فخر الدين المعني الأول- أمير دروز الشوف - فقد انحاز إلى السلطان العثماني وحارب في صفه فكافأه السلطان بتعيينه أميراً على جبل لبنان، فتضاءل بذلك نفوذ بقية الأسر الكبرى وعلا نجم المعنيين[٣].

(١) د/ عمر عبد العزيز، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص١٢٤-١٢٦.
(٢) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص ٥٠.
(٣) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص ٩٠.

الأمير فخر الدين المعني الأول :

عهد السلطان سليم الأول العثماني بأمر لبنان إلى الأمير فخر الدين المعني الدرزي الأول، وسماه سلطان مقابل أن يعترف هذا الأمير بالسيادة العثمانية ويقدم للدولة في استانبول الجزية السنوية ومعها دلائل خضوعه لها[١].

وقد نهضت هذه الإمارة وترسخت أقدامها على حساب الإقطاعيين الآخرين أمثال أسرة العساف وآل سيفا، وقد رجح فخر الدين المعني كفة القيسيين على اليمن وتزعمهم آل علم الدين وآل أرسلان، وانشغل فخر الدين في تقوية نفسه لمواجهة ولاة دمشق وأعدائه آل سيفا. وقد نجح في توطيد حكمه في وقت اندلعت فيه التمردات ضد الدولة العثمانية، وكانت الدولة العثمانية قد تمادت في طلباتها مما دفع الأمير فخر الدين إلى أن يعلن العصيان على الدولة ، وظل الصراع بين الطرفين طويلاً حتى قتل فخر الدين عام ١٥٨٤م وواصل ابنه قرقماز كفاحه ضد الحملات العثمانية التي أُرسلت لإبادة الدروز، ولكن قرقماز لقي حتفه عام ١٥٨٥م مع كثيرين من زعماء لبنان وقادته[٢].

الأمير فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠م-١٦٣٥م):

تولى الأمير فخر الدين المعني الثاني الحكم في جبل لبنان عام ١٥٩٠م وكان أبوه قرقماز بن فخر الدين المعني الأول: وتطلع إثر تسلمه الإدارة إلى مد سلطته على لبنان الشمالي وعلى سهل البقاع في الشرق. وقد حرص خلال هذه الفترة من توطيد سلطته على كسب عطف العثمانيين بالهدايا وتقديم مال الميري دون تأخير ، غير أنه لم يستطع القضاء على جاره ووالد

(١) أميل توما، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) د/ عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص ١٦٤-١٦٥.

زوجتـه يوسف باشا سيفـا وعلى نفوذ أسرته حـتى عام ١٦٢٧م، وظل بنو سيـفا طيلة هذه الفتـرة شوكة في جنب فـخر الدين، وحدوا من توسـعه في الشمال، ولكن بقيت له حرية التوسع في الشرق والجنوب[١].

وشارك الأمير فخـر الدين المعني الثاني علي جنبلاط الكردي الثورة على الباب العالي منذ عـام ١٦٠٣م، ولكن الدولة العثمانية لم تتـعرض له حتى بعد هزيمة جنبلاط، بل تركت إليه حكم البلاد الواقـعة في حوزته لقاء جزية سنوية يدفعها[٢]. وكانت مهارته هي سبب موقف الباب العالي الودي منه، ذلك أنه بعث للسلطان العثمـاني بجزية ضخمة وأعلن أن كل مـا يغتنمه في حروبه سيتقاسمه مع الباب العالي[٣].

غيـر أن امتداد نفـوذ فخر الدين المعني الـثاني على البقـاع الخاضع لولاة الشام زاد مـن الاحتكاك والمنافـسة بين الطرفين، لاسـيما وأن المنطقـة التي أصبح يسـيطر عليها فخـر الدين كانت تمر فيهـا الطرق التي تربط بين دمشق والساحل، وبين دمـشق وفلسطين ومصـر، وتتحكم في سلامـة قافلة الحج الشامية. ومن ثم بدأت المشاحنات بين فخر الدين وولاة دمشق .

ولدرء الأخطار المتوقعـة من جانب ولاة دمشق اتخذ فخـر الدين له عيوناً ووكلاء في استانبول ، واتفق على عدد من الجواسيس استخدمهم في قصور منافـسـيه وخـصـومه، ولـم يتردد في تقـديم رشـاوى للمـوظفين الأتراك العثـمانيين. وقـام كذلك باتصالات مع حكام تـسكانيا في إيطاليا لـتنشيط تجارة بلاده مـعهم، وخاصة تجـارة الحرير، وعقد مع فـرديناند الأول حاكم

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص٥٤.
(٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٥٣.
(٣) د/ عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص ١٦٤-١٦٥.

تسكانيا معاهدة عام ١٦٠٨م اشتملت على بنود عسكرية سرية موجهة ضد الباب العالي ، وجاء فيها أن فخر الدين صرح بعزمه على احتلال دمشق والقدس وتسليمهما إلى أمير تسكانيا، وطلب أسلحة. وأرسل حاكم تسكانيا كوزيمو الثاني سفناً محملة هدايا مع البنادق ومعدات القلاع والمواد المتفجرة مع رسالة إلى فخر الدين يعلن فيها عن رغبته في استمرار الصداقة مع تسكانيا(١).

وإزاء ذلك كله شرع الأمير فخر الدين يُعد للثورة على تركيا عام ١٦١٣م بعد أن أعد جيشاً كبيراً وقوى حصونه وتفاوض مع دوق تسكانيا الإمارة الإيطالية، كما تفاوض مع أسبانيا وبابا روما لمساندته في الحرب ضد الدولة العثمانية، فأرسل العثمانيون حملة عسكرية كبيرة نزلت في لبنان وأجبرت فخر الدين على الفرار إلى إيطاليا حيث مكث هناك خمس سنوات في ضيافة حاكم تسكانيا، وأخذ والي دمشق عدداً من الرهائن من المعنيين، وفرض عليهم مبلغاً كبيراً من المال. وقد خف العداء في استانبول ضد فخر الدين أثناء غيابه في إيطاليا، وذلك لانشغال الدولة العثمانية بحربها مع الصفويين(٢).

وقد عاد فخر الدين إلى لبنان عام١٦١٨م بعد أن أصدر السلطان العثماني فرماناً بالعفو عنه، وشرع في توطيد سلطته من جديد، فاهتم بتطوير اقتصاديات بلاده الزراعية والتجارية، واعتمد على تنشيط التجارة كمورد من موارد الثروة، واستخدم عائدات الجمارك في بيروت وصيدا لتمويل جيشه، وترتب على ذلك أن غدت صيدا أكبر ميناء تجاري في شرقي البحر

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص ٥٥.

(٢) د/ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص ١٥٣.

المتوسط، وكان تجار فلورنسا يصدرون منها منتجات لبنان من الحرير والصابون وزيت الزيتون والقمح مقابل المنسوجات، واستقدم فخر الدين من إيطاليا مهندسين مدنيين للري وخبراء زراعيين ، لاستخدمهم في مشاريعه العامة والخاصة[1].

وأياً كان الأمر فقد نجح فخر الدين في بسط نفوذه على منطقة واسعة تمتد من حدود حلب إلى حدود العريش، ووطد سلطته فيها. ووجد العثمانيون صعوبة في إخضاعه لنفوذهم بسبب انشغالهم وقتذاك في صد الخطر الصفوي، ولذا اعترف السلطان مراد الرابع (١٦٢٣م- ١٦٤٠م) بسلطة فخر الدين، وأصدر عام ١٦٢٤م فرماناً على بلاد عربستان (من حلب إلى العريش) شريطة أن يقدم فخر الدين مال الميري لخزينة الدولة وأن يحافظ على الأمن في منطقته[1].

وقد عزز فخر الدين دفاعاته وقواها، فبنى الحصون والقلاع، وأثار ذلك شكوك السلطان من أن فخر الدين بعد أن بلغ من القوة حداً فإنه قد يعلن الثورة مستغلاً انشغال العثمانيين بقتال الصفويين، ولهذا أمر السلطان العثماني عام ١٦٣٣م واليه في دمشق أحمد باشا (كجك أحمد) بالتوجه لقتال فخر الدين، ووضع تحت تصرفه جيشاً كبيراً من جنود الأناضول ومصر، وقام في الوقت نفسه أسطول عثماني بمهاجمة الموانئ والحصون الساحلية. وانتصر كجك أحمد باشا على الأميرعلي بن فخر الدين في البقاع عام ١٦٣٤م وفتك بمعظم قواته، وكانت هذه بداية النهاية بالنسبة لفخر الدين الذي ارتكب خطأ توزيع القسم الأكبر من قواته على القلاع

(١) المرجع نفسه.

(٢) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ٢، ص ٣٢٩.

المبعثرة التي أخذت تنهار الواحدة بعد الأخرى. وحوصر فخر الدين في قلعة جزين، ولما أدرك عدم جدوى المقاومة استسلم إلى كجك أحمد باشا في ١٣ أبريل ١٦٣٥م هو وثلاثة من أبنائه كانوا قد اعتقلوا معه[١].

وعلى إثر إزالة فخر الدين من المسرح السياسي طرأ على لبنان عهد من القلق والفوضى، وأدى ذلك إلى ملاحقة العثمانيين للمعنيين ومصادرة ممتلكاتهم وإبادة الكثير منهم، مما أدى إلى إضعاف أسرته من جهة، وأضعفت بالتالي إمارة جبل لبنان. وقد أدى القضاء على فخر الدين إلى حدوث شبه فراغ سياسي في جبل لبنان وفلسطين، ولم يستطع أي أمير محلي أن يملأ هذا الفراغ إلى أن سيطر ظاهر العمر على فلسطين وطغى بنفوذه على أمراء جبل لبنان والولاة العثمانيين[٢].

وكان فخر الدين يتولى حماية قوافل الحج من خطر واعتداءات البدو، غير أن الأمراء المحليين في بلاد الشام تنافسوا لتعيين أمراء للحج، ولكن السلطات العثمانية كانت تحرص على إخضاع القبائل البدوية لسطوتهم، وقد واجهت الدولة العثمانية صعوبات في السيطرة على القبائل، مما عرض كثيراً من القرى إلى الدمار فهجرها أهلها[٣].

الأسرة الشهابية:

تسلم الأمير الدرزي بشير الشهابي الأول السلطة في لبنان بعد أن انقرضت الأسرة المعنية عام ١٦٩٧م، فأجمع أتباع المعنيين على تعيين الأمير

(١) د/ أميل توما، فلسطين في العهد العثماني ، ص ٣٢-٣٣.

(٢) د/ عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص١٦٦-١٦٧، وانظر : د/ عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص١٦٨.

(٣) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص ٥٨-٥٩.

بشير بن حسين الشهابي وهو ابن أخت الأمير المعني، أما السلطان العثماني فكان يرغب في تعيين حيدر الشهابي ابن عم بشير. ونظراً لصغر سن حيدر عُين بشير عليه حتى يبلغ سن الرشد[١].

واجه الأمير بشير الشهابي ثورة قام بها المتاولة الشيعة بزعامة شيخ يمني، ولكن الأمير الدرزي بشير الأول استطاع أن يقضي على ثورة المتاولة، وعين الشيخ ظاهر العمر في صفد وهو ينتمي إلى أسرة قيسية تدعى بنو زيدان[٢].

ولكن الصراع لم يتوقف بين الأسرة الشهابية وبين الدولة العثمانية التي كانت تستخدم اليمنيين في هذا الصراع، لكن حيدر الشهابي تمكن من مد سيطرته على مناطق الشيعة في جنوب لبنان، غير أن التحالف العثماني اليمني قد نجح عام ١٧١٠م في الإحاطة بالأمير حيدر الشهابي، إلا أن الشهابيين بزعامة حيدر لم يستسلموا وتمكنوا من القضاء على كافة زعماء أسرة علم الدين اليمنية، مما دفع الأتراك إلى التخلي عن معاداة الأسرة الشهابية والتدخل في شئون لبنان الداخلية لمدة طويلة[٣].

وبعد هذا الانتصار الساحق جدد حيدر الشهابي نظام لبنان وفقاً لمصالح أعوانه، فأقطع آل أبي اللمع إقليم المتن بين كسروان والشوف، كما أقطع آل جنبلاط الشوف، وظلت كسروان تحت سيطرة الخازن، ومنح آل أرسلان في منطقة الشويفات. وبذلك توطد النظام الإقطاعي في لبنان، واستكمل هيكله الأساسي، فقاعدته تتكون من الشعب ودورهم الرئيسي الزراعة

(١) حيدر أحمد الشهابي، الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، بيروت ١٩٣٣، ص٣-٥.

(٢) د/ محمد أنيس، د/ السيد رجب حراز، الشرق العربي، في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٦٧، ص٦١.

(٣) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص٥٥.

والرعي وإنتاج الحرير، ويخضعون لمشايخ من الدروز والموارنة، وفوق هذا البناء الإقطاعي كله يقوم الأمير الشهابي- أمير الجبل - وله الرئاسة العليا على العامة والمشايخ وغيرهم[١].

وفي عام ١٧٩٥م تسلم القيادة بشير الثاني، ووضع لبنان تحت سلطته ودخل في صراع مع أحمد باشا الجزار حاكم عكا (ولاية صيدا)، ووقف الباب العالي مؤيداً لبشير الثاني خشية أن يستغل الجزار انتصاره على حملة نابليون ١٧٩٩م للانفصال عن الدولة، ومنح بشير الشهابي الثاني حكم مناطق البقاع والجبل الشرقي وصيدا، وأصبحت تبعية بشير الشهابي للسلطان العثماني مباشرة بدلاً من تبعيته لباشوية عكا ووالياها الجزار، وكان ذلك مثار خلاف بين الرجلين حتى توفي الجزار عام ١٨٠٤م فأخذ بشير الثاني يعمل لإصلاح الأحوال في لبنان ويضع السلطة في يده بقوة. ومع ذلك شهدت البلاد نهضة اقتصادية واستطاع بشير الثاني استقطاب القوى المتناحرة في لبنان باللين تارة وبالعنف تارة أخرى، غير أنه واجه متاعب كثيرة من والي عكا حتى ثار اللبنانيون ضده، ، فهرب بشير الثاني إلى مصر عام ١٨٢٢م وكان هروبه سبباً في ظهور الأسرة الجنبلاطية، حتى إذا نجح محمد علي في الحصول على عفو من السلطان العثماني عاد بشير الثاني إلى لبنان كحليف لمحمد علي ١٨٣١م وبقي إلى ١٨٤٠م عندما غادر لبنان للمرة الأخيرة[٢].

أما لبنان فقد عاش جواً من الانقسامات والطائفية حتى ثارت فتنة دينية عام ١٨٦٠م بين الدروز والموارنة كانت نتيجتها مذبحة لكلا الطرفين،

(١) د/ عمر عبد العزيز، المرجع السابق، ص١٧٩.

(٢) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص٥٥-٦٦.

وامتـدت المذابح إلى سوريا. وكانت فـرنسا وراء هذه المذابح لإيجاد مـبرر بتدخل فرنسا لحماية الموارنة الكاثوليك، ونتيجة لهذه المذابح وتدخل الدول في أمور لبنـان فقد تم وضع نظام أسـاسي لحكم جبل لبنان حـصل بمقتـضاه (جبل لبنان) على حكم ذاتـي برئاسة حاكم مسـيحي يخضع للبـاب العالي مباشرة، ويساعده (المتصرف) مجلس إداري مكون من ١٢ عضواً، عضوان من كل طائفة هي:

الدروز والماردنـيين والسنيين والـشـيـعـة والروم الأرثـوذكس والروم الكاثوليك، وقد اعتبر النظام الأساسي دستوراً للبنان حتى عام ١٩١٤م، ثم عُدل بعد خضوع لبنان للحكم الفرنسي عام ١٩٢٠م[١].

أسرة آل العظم في سوريا

بانتصـار السلطان سليم الأول في معركـة مرج دابق ودخوله دمـشق عام ١٥١٦م تقررت السيادة العثمـانية على بلاد الشام، فعين جان بردي الغزالي والياً على دمشق (١٥١٧م-١٥٢٠م) مكافأة له على خيانته للدولة المملوكية ومساعدته العـثمانيين إبان الفتح، غير أنه قد أعلـن الثورة بعد وفاة السلطان سليم عام ١٥٢٠م واستولى على قلعة دمشق ومنع الخطباء في سائر الجوامع من أن يخطبوا باسم السلطان سليـمان، إلا أن الدولة العثمـانية قضت على حركته وقتلته عام ١٥٢١م[٢].

وعلى إثر القـضاء على ثورة الغزالي أعـاد العثـمانيون تنظـيم بلاد الشام للمـرة الأولى، فـأسسـوا ثلاث ولايات هي : ولاية حلب فـي الشمـال،

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) د/ محمد أنيس، د/ السيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة ١٩٦٧، ص٥٧.

وولاية دمشق في الوسط، وولاية طرابلس، وتشرف على الساحل السوري وجبل لبنان. وفي خارج المدن أبقى العثمانيون على أصحاب العصبيات والزعماء المحليين الذين قامت زعامتهم إمّا على أسس دينية وإمّا إقطاعية أو بدوية[١].

ومهما يكن من أمر فقد ازداد النفوذ المحلي في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر، وشهدت سوريا حركة سلمية مع الدولة العثمانية تمثلت في تولي آل العظم الحكم في سوريا لمدة ستين عاما. فقد لجأت الدولة العثمانية إلى تولية آل العظم الولاية في سوريا بسبب الفوضى والاضطرابات التي سادت سوريا أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، بعد أن شهدت دمشق وحلب ازدهاراً اقتصادياً واستقراراً ، حتى أصبحتا أكبر وأهم المراكز التجارية. كما استخدم الباشاوات العثمانيون جنوداً مرتزقة، وحصل نزاع بين الإنكشارية السلطانية (القابقوك) والإنكشارية المحلية (يرليه)[٢].

وفي وسط هذا الاضطراب برزت أسرة آل العظم، وتولت باشوية دمشق وأثبتوا أمام السلطان العثماني أنهم جديرون بثقته، ونجحوا في ذلك وأصبح حكم الولاية وراثياً في هذه الأسرة.

وكانت دمشق محط اهتمام السلطان العثماني باعتبارها تتحكم في طريق الحجاج القادمين من تركيا ومن شمال سوريا. وتأمين هؤلاء الحجاج في الطريق أمر له أهميته عند السلطان العثماني باعتباره حامي حمى الإسلام والمسلمين، لذا فإن السلطان عهد إلى باشا دمشق بقيادة حملة عسكرية لمرافقة قوافل الحجاج كل موسم لحمايتها من غارات البدو، ويحمل الباشا

(١) د/ السيد رجب حراز، العالم العربي في العصر الحديث، ص ٥٢.
(٢) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص ١١٥-١١٦.

لقب أمير الحج، ومن ثم فإنه يتولى إمداد هذه القوافل بما تحتاج إليه من مؤن ورعاية طوال عبورها أراضي بلاد الشام حتى الأراضي المقدسة[١].

ولاريب أن استعانة السلطان العثماني بآل العظم كانت بهدف القضاء على الاضطرابات في دمشق، وقد نجحوا في ذلك وثبتوا السيادة العثمانية فيها، مما أدى إلى عدم استطاعة الدولة العثمانية الاستغناء عن خدمات هذه الأسرة[٢].

وقد منح السلطان آل العظم أراضي واسعة في ولاية الشام، فكونوا من وراء ذلك ثروة كبيرة، كما أفادوا من الازدهار الاقتصادي في ولاية طرابلس[٣].

وأول ولاة آل العظم في بلاد الشام هو إسماعيل باشا العظم الذي عين حاكماً على معرة النعمان وحماة عام ١٧٢٠م، ثم عين بعد خمس سنوات والياً على الشام. واعتمد على قواته من المرتزقة المغاربة في دعم سلطته والحيلولة دون نشوب ثورة ضده، واستطاع أن يؤمن قافلة الحج الشامية من اعتداءات البدو، فيما عدا العام الأخير من ولايته ١٧٣٠م حين شنت قبيلة حرب في الحجاز هجوماً على قافلة الحج ونهبتها. ولم يتورع إسماعيل باشا عن ابتزاز الأموال من الفلاحين، مما جعل فلاحي منطقة القدس يثورون عليه عام ١٧٢٩م فأسرع لنجدته أخوه سليمان باشا حاكم صيدا[٤].

وكان سليمان باشا العظم قد عين على ولاية طرابلس بعد نقل أخيه

(١) د/ محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، القاهرة، ١٩٦٢، ١٥٢.
(٢) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص١١٨.
(٣) د/ عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق ، ص١٦٥.
(٤) د/ عبد الكريم غرايبة، مقدمة في تاريخ العرب الحديث، دمشق، ١٩٦٠، ص٥٥.

إسماعيل باشا إلى ولاية الشام عام ١٧٢٥م، وبعد عامين عين إبراهيم باشا العظم على ولاية طرابلس ونقل سليمان باشا إلى ولاية صيدا، وبذلك حكم آل العظم ولايات الشام وطرابلس وصيدا في وقت واحد. ولكن ثورة الإنكشارية في استانبول في ٢٨ سبتمبر ١٧٣٠م وما أدت إليه من عزل السلطان أحمد الثالث وتنصيب محمود الأول مكانه صحبها إجراء حركة تغيير واسعة بين كبار الموظفين في الولايات، فعزل جميع الولاة من آل العظم في بلاد الشام وسجنوا وصودرت أموالهم. ويعزى غضب الإدارة العثمانية في استانبول على آل العظم إلى عدة أسباب منها ما لجأوا إليه أثناء حكمهم من ابتزاز أموال الشعب وتلقي الإدارة الشكاوى بهذا الصدد، بالإضافة إلى استيائها من هجوم قبيلة حرب في الحجاز على قافلة الحج الشامية عام ١٧٣٠م، والتي كان إسماعيل باشا أميرها، زد على ذلك أن الدولة كانت تغب في مصادرة أموال آل العظم الضخمة لحاجتها إليها في تمويل حربها مع فارس[١].

غير أنه لم يمض عام واحد على إلغاء الولاء من آل العظم في السجون ومصادرة أموالهم حتى أصدرت الدولة أمراً بالعفو عنهم، وعينت إسماعيل باشا والياً على طرابلس. ولم يقنع الأخير بهذه الولاية، فصار يسعى للحصول على ولاية الشام، وتم له ما أراد عام ١٧٣٤م. واهتم سليمان باشا خلال ولايته الأولى على الشام (١٧٣٤م-١٧٣٨م) بتوطيد الأمن في دمشق، فضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق، ووضع حداً لمنازعات البرليه والقابقول، وبطش بعدة أفراد منهم، كما أمن سلامة قافلة الحج طيلة عهده، وتشدد مع سكان الريف لابتزاز الأموال منهم بحجة إخضاعهم

(١) د/ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص ١٣٥.

لسلطة الدولة، ولم يلبث أن وجه اهتمامه نحو طاهر عمر الزيداني الذي ازدادت قوته كثيراً[١].

وخلال السنوات الثلاث التي انقضت بين ولاية سليمان باشا العظم الأولى على الشام (١٧٣٤م-١٧٣٨م) وبين ولايته الثانية على تلك الولاية (١٧٤١م-١٧٤٣م)- حيث تعاقب ثلاثة ولاة على الحكم هم : حسين باشا وعثمان باشا وعلي باشا- فقد ساءت الأمور واضطربت الأحوال بسبب النزاع بين البرليه (الإنكشارية المحلية) والقابقول (الإنكشارية السلطانية)، مما اضطر الدولة العثمانية لإعادة آل العظم إلى الحكم وتثبيت حكمهم في بلاد الشام، فأعادت سليمان باشا العظم إلى ولاية الشام للمرة الثانية في يوليو ١٧٤١م، غير أن الوضع المضطرب في دمشق لم يمكنه من استعادة سلطته المطلقة، فقد تحداه البرليه ولم ترهبهم قوة سليمان باشا، ولم يستطع سليمان باشا إعدام الخارجين على القانون تحاشيا لسوء العاقبة، غير أن تساهل سليمان مع البرليه وتسامحه مع سكان المدن لم يمنعه من محاولة تشديد قبضته على القوى المحلية في الريف، فقد خرج سليمان باشا من دمشق على رأس حملة لاحتلال طبريا التي تحصن فيها ظاهر العمر، غير أنه فشل. وتوفي سليمان باشا في عام ١٧٤٢م وخلفه ابن أخيه أسعد باشا العظم[٢].

وفي عهد أسعد باشا العظم اتسع نفوذ أسرة العظم بتولي أفرادها في باشوية دمشق وتولي أسعد باشا أيضاً إيالة حلب عام ١٧٥٥م، بالإضافة إلى حصوله على موافقة السلطان بتعيين أقاربه وأتباعه في ولايات طرابلس

(١) د/ محمد أنيس، د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص٥٩.

(٢) د/ محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٥٣.

وصيـدا. ورغم اتساع نفوذ آل العظم فـقد شهـدت دمشق اضطرابات أدت إلى خروج أسعد الـعظم ثم عثمان باشا العظم الذي فشل في صـد التحالف المملوكي المصري الشـامي عام ١٧٧١م حتى دخل الجنود دمـشق، مما جعل الدولة العثمانية تعزل عثمان باشا[١]، فحدثت اضطرابات في دمشق فثبتت الدولة العثـمانية محـمد باشا العظم في مكـان عثمان باشـا المصري وحكم مايقرب من عـشر سنوات. وبعد وفاة محـمد العظم في عام ١٧٨٢م حكم إبراهيم باشـا من عام ١٧٨٥م حتـى عام ١٧٩٠م، وخلفه في ولايـة دمشق أحمد الجزار الذي يعتبر حكمه أسوأ حكم شهدته ولاية دمشق[٢].

حركة ظاهر العمر وأحمد الجزار في فلسطين

خضعت بلاد الشـام منذ دخول العثمانيين إليهـا في أوائل القرن السادس عشر لنظم الحكم العثـمانية، وطبقاً لهذه النظم فقـد انقسمت بلاد الشام إلى ثلاث ولايات هي : ولاية حلب وولاية طرابلس وولاية دمـشق. وظل هذا التقسيم سـاري المفعول حتى عام ١٦٠٠م حيث أعيـد تقسيم بلاد الشام إلى أربع ولايات بإضافة ولاية صـيدا التي ضمت المناطق الساحليـة لبلاد الشام (حيفا وعكا ويافا وغيرها)، وكـان الدافع أمام الدولة العثمانية لإنشاء ولاية صيدا هو مـراقبة الدروز والموارنة في لبنان، وضمان عـدم تجدد الثورات في لبنان[٣].

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٩.
(٢) د/ عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص١٦٨.
(٣) د/ رأفت الشيخ، في تاريخ العرب الحديث، ص١٢٣.

وبذلك اكتسبت ولاية صيدا مركزاً خاصاً بين ولايات الشام، ويعود ذلك إلى عدة عـوامل هي : تجدد النزاع مع دروز لبنان، وتطلع مماليك مـصر إلى جنوب بلاد الشام، ونشاط الأوربيين التجاري في صيدا[١].

وكانت ولاية صيدا مقسمة إلى إقطاعيات يلتزم كل مقاطعة منها شيخ من البيوت ذات المكانة الاجتماعيـة العالية، وهؤلاء المشايخ كانوا يتحصنون في حصونهم وقلاعهم ويلتف حولهم رجال أشداء من عشائرهم ينفذون أوامر المشايخ ولايخرجون عليها.

ونظراً لأن ولاية صـيدا كـانت أقل أهميـة من بقـية ولايات الشـام، فلم يتواجـد بها قوات عسكرية من أهـل البلاد أو من الإنكشارية، وإنما اعتـمد الولاة على قـوات عسكريـة مرتزقـة مأجـورة غـرباء عن أهل البلاد. وقـد أسـاءت القوات المأجـورة مـعاملة أهالـي البلاد، فنهـبت وسلبت وقـتلت العديد، فنقم الأهالي على الجنود واضطربت أحوال البلاد[٢].

وهكذا فإن أوضـاع ولاية صيدا المضطربة هـيأت للشيخ ظاهر العـمر أن يطلق آماله وتطلعاته وطموحاته للسيطرة عليها، فمن هو ظاهر العمر؟

هو ظاهر بن عمر الزيداني، عـربي الأصل من قبيلة بني زيدان النازلة في معرة النعمان بين دمـشق وحلب، ولم يكن يعرف من بني زيدان سوى عمر والد ظاهر الذي عـينه الأمير بشـير الشـهابي ملتزمـاً على ولاية صيـدا عام ١٦٩٨م وكان واليـها الأميـر منصور الشهابـي، واستمر الشـيخ في مهمـته وحافظ على هذه العلاقة مع الشهابيين حـتى بعد وفاة الأمير منصور في عام

(١) د/ محمد أنيس، د/ السيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص٦١.
(٢) ميخائيل الصباغ، تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني، بيروت ١٩٥٦، ص١٠-١١.

١٧٠٢[١].

ومنذ ذلك التاريخ بدأ بنو زيدان يوسعون رقعة نفوذهم ويوطدون وحدة مقاطعاتهم، فقد وزع الشيخ عمر صالح الزيداني مقاطعات التزامه على أبنائه وأصغرهم ظاهر العمر الذي ولد عام ١٦٨٩م، واشتهر بالأخلاق والرحمة مع الشجاعة والمهارة والذكاء وتأدب في الآداب العربية والثقافة الإسلامية، ولكن مع الأيام تولى ظاهر زمام القيادة وقد استطاع بحسن سمعته وتدبيره أن يحصل من والي صيدا على التزام طبريا، وأصبح الملتزم الحقيقي أمام والي صيدا، وقد عمل على استقرار الأوضاع وتوطيد الأمن في البلاد.

وباستقرار ظاهر العمر في طبريا أخذ يوسع التزامه بضم البلاد التي حولها بموافقة باشا صيدا، بالهدايا تارة والحرب تارة أخرى، وقد فرح أهالي البلاد بحكمه لما اتصف به من عدل ورحمة وقدرة على حماية الأهالي من غارات البدو[٢].

وقد مرت فترة حكم الشيخ ظاهر العمر بأربعة أدوار:

- الدور الأول (١٦٨٩م-١٧٣٠م) وتشمل نشأته وباكورة أعماله في منطقة عرابة البطوف، معرة النعمان.

- الدور الثاني (١٧٣٠م-١٧٤٣م) ويشمل إقامته في طبريا واستيلاءه على بلاد صيدا والجليل.

-الدور الثالث (١٧٤٤م-١٧٧٠م) ويشمل إقامته في عكا واتخاذها عاصمة

(١) د/ أميل توما، فلسطين في العهد العثماني، عمان، ١٩٨٤، ص ٤٠.

(٢) د/ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ص ١٣٥.

لبلاده.

- الدور الرابع (١٧٧٠م-١٧٧٥م) ويبرز دوره في تحالفه مع روسيا وعلي بك الكبير ومحاربته للدولة العثمانية[١].

ونتيجة لاتساع التزام ظاهر وقوة شوكته فقد أخذت العلاقات تسوء بين ظاهر من ناحية وممثلي الدولة العثمانية من ناحية أخرى. فقد تعرضت دويلة ظاهر العمر لعدد من الهزات الخطيرة. فقد هاجمها الولاة بأمر من السلطنة العثمانية في أكثر من مناسبة، وواجهتها صراعات مع قبائل من ناحية ومشايخ منافسين من ناحية أخرى، وعصفت بها حروب أهلية حيث ثار أبناء ظاهر العمر على أبيهم سعياً وراء مصالح ذاتية ضيقة[٢].

وكان المحك الأول بين ظاهر وباشا صيدا هو مدينة عكا التي أراد ظاهر أن يأخذ التزامها بحجة حمايتها من القراصنة المالطيين، إلا أن والي صيدا رفض إعطاءها ا لظاهر رغم العروض السخية التي عرضها ظاهر، فأشار عليه أخوه سعد بأخذها بالقوة، وحارب المتاولة في جبل عامل في لبنان وضمها إلى إقطاعاته، كما ضم منطقة نابلس إلى أراضيه.

وكان ظاهر العمر قد ضم طبريا إلى منطقة صفد منذ عام ١٧٤٢م وتحالف مع المتاولة الشيعة وهم الذين تحملوا طويلاً ظلم الموظفين الأتراك لتحرير المنطقة من حكامها، وكان المتاولة على أتم استعداد لتأييد أي زعيم يعمل على تحريرهم. ولم تلبث نابلس والناصرة أن خضعتا لظاهر، وكانت الغنيمة الكبيرة التالية هي مدينة عكا التي وقعت في يده عام ١٧٥٠م وكانت

(١) توفيق معمرة، ظاهر العمر ، بيروت، ١٩٣٠، ص ١٢٠.
(٢) د/ أميل توما، المرجع السابق، ص٤١.

في حالة من الدمار الجزئي منذ عهد الصليبيين، فحصنها وجعلها مقره واستخدمها لتصدير الحرير والقطن والقمح وسواها من منتجات فلسطين إلى الأسواق الخارجية. وحرص ظاهر أثناء ذلك على تحسين علاقاته مع السلطات العثمانية، فدفع مال الميري بانتظام، وقبض على عدد من مشاغبي البرلية الخارجين عن القانون والهاربين من دمشق، وقتل بعضهم وأرسل رؤوسهم إلى الأستانة للتدليل على طاعته ومحافظته على القانون. وفي عام ١٧٥٣م عقد الفرنسيون معه اتفاقاً لتنظيم التجارة بينهما، وانعكس ازدياد سلطته على الألقاب التي اتخذها، فقد لقب نفسه: ضابط عكا وبلادها، وضابط عكا وبلاد الجبل[١].

ولاريب أن حملات ولاة دمشق المتكررة وأبرزهم سليمان باشا العظم ضد دويلة ظاهر العمر بقصد إنهاء هذه السلطة المحلية، قد أخفقت. واستمر ظاهر العمر في توطيد مواقعه وحكمه، وساعد على ذلك النمو الاقتصادي للدولة القائم على التبادل التجاري بين فرنسا ودويلة ظاهر، وكذلك سياسته التي تقوم على التسامح بين طوائف البلاد مما ساعد على استقرار الدولة[٢].

ومهما يكن من أمر فإن ظاهر العمر قد حقق توطيد الأمن في دويلته بإنشاء قوات عسكرية من أبناء البلاد، وبنى الحصون والقلاع في المواقع الاستراتيجية، وحول بعض المدن وبخاصة طبريا وصفد وعكا إلى قلاع حصينة صمدت أمام حملات السلطنة العثمانية. وكان لتقدم الدولة اقتصادياً وازدهار تجارتها مع فرنسا أثر كبير في ترسيخ النظام وتوطيد

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، جـ٣، ص٣٠٢.

(٢) د/ أميل توما، المرجع السابق، ص٣٢.

الاستقرار وصد الحملات العثمانية عن دولته[١].

وإزاء صعود دويلة ظاهر العمر فإن الدولة العثمانية وولاتها وشيوخ الالتزام أخذوا يثيرون المشكلات والصعوبات ضد ظاهر العمر، واشتد النزاع بينه وبين والي دمشق عثمان باشا الكرجي، وحاول السلطان العثماني عزله عن ولاية صيدا وتسليمها للوالي الجديد درويش باشا بن عثمان باشا والي دمشق، وكلف والي دمشق وأولاده للقضاء على ظاهر وأسرته، ولما يمض وقت طويل على وصول الفرمان السلطاني للشيخ ظاهر بولاية صيدا والبلاد التي في يده لكن ظاهر استطاع هزيمة القوات المتحالفة المعادية له هزيمة كبيرة، ورجع منتصراً إلى عكا، فوسع إمارته وضم يافا والقدس والخليل تلبية لطلبات أهلها، وأرسل للدولة العثمانية بطلب موافقتها فاضطر السلطان العثماني إلى الموافقة على ذلك نظير مبلغ كبير من المال[٢].

ونتيجة لكل الظروف والملابسات التي واجهت ظاهر العمر، ولما كانت الصلات بينه وبين الدولة العثمانية أخذت في السوء فقد تحالف ظاهر مع علي بك الكبير في أوائل عام ١٧٧٠م، وتلا ذلك دخول قواتهما دمشق بقيادة محمد بك أبي الذهب في يونيو ١٧٧١م، ثم انسحاب أبي الذهب فجأة من دمشق وعودته إلى مصر مما أحدث اضطراباً في ميزان القوى في بلاد الشام. وقد تمكن ظاهر العمر من احتلال صيدا وسيطر مع قوات حليفه علي بك على معظم مناطق فلسطين الغنية، ولم يكن أبو الذهب قد أعلن بعد عن عدائه لعلي بك، فلما كشف عن هذا العداء هرب علي بك من مصر أواخر إبريل ١٧٧٢م ولجأ إلى ظاهر العمر. وبناء على طلب

(١) المرجع نفسه، ص ٤٤.

(٢) ميخائيل الصباغ، المرجع السابق، ص٦٦.

الحليفين توجه الأسطول الروسي إلى بيروت لتحطيم السفن العثمانية فيها ولإشغال الأمير يوسف الشهابي بالدفاع عنها، فقصفها بالمدافع في ٨ يونيو وأنزل فيها قواته التي ما لبثت أن انسحبت منها بعد خمسة أيام بضغط من الأمير يوسف الذي كان يحكم بيروت. وفي أوائل مارس ١٧٧٣م عاد علي بك إلى مصر ومعه بعض قوات ظاهر لقتال أبي الذهب، واشتبكت قواتهما بالقرب من الصالحية في ٢٨ مارس، وجرح علي بك ثم توفي بعد أيام[١].

وما لبث أن جهز أبو الذهب جيشاً وخرج به من مصر في أوائل مارس ١٧٧٥م لمحاربة ظاهر العمر والاستيلاء على ممتلكاته باسم السلطنة العثمانية، وخضعت له غزة والرملة ويافا وعكا وصيدا، وهرب ظاهر لكنّ أبا الذهب توفي فجأة في يونيو ١٧٧٥م فانسحب جيشه عائداً إلى مصر، وما كاد ظاهر يتخلص من خطر أبي الذهب حتى أرسلت الدولة العثمانية قوة بحرية بقيادة القبطان حسن باشا للقضاء عليه. وبعد أن استسلمت حيفا لحسن باشا انتقل منها لفرض الحصار على عكا مركز ظاهر، وحين حاول ظاهر الهرب قتله بعض أتباعه من المغاربة في أواخر أغسطس ١٧٧٥م، وهكذا انهار حكم ظاهر. ومالبث أن ورث ممتلكاته في بلاد الشام الجنوبية أحمد باشا الجزار[٢].

وكان أحمد الجزار مملوكاً لعلي بك الكبير، ونال في مصر رتبة البكوية، ولقب بالجزار لشدة بطشه بأعراب إقليم البحيرة، ولما اقترفه من مذابح لا تحصى. ثم توجه مع بعض مماليكه إلى بلاد الشام حيث أدى خدمات عسكرية للدولة ضد ظاهر العمر، كوفئ عليها بتعيينه حاكماً لعكا ثم والياً

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص١٠٨.

(٢) ميخائيل الصباغ، المرجع السابق.

على صيدا عام ١٧٧٦م، واستطاع أن ينتزع بيروت من الأمير يوسف الشهابي، وأخضع عام ١٧٨١م المتاولة وأخذ منهم مدينة صور، واتخذ عكا مركزاً له وكان يقيم فيها حوالي عشرة شهور ويقيم المدة الباقية في صيدا التي كانت مركز الولاية الرسمي[١].

وأعاد أحمد باشا الجزار تحصين عكا، وأنشأ جيشاً من المرتزقة وموله بطرق مختلفة منها الضرائب التي أرهقت كاهل الفلاحين ومصادرة أموال التجار الأجانب، مما جعل الكثير من الفلاحين يهجرون قراهم. وحين توفي محمد باشا العظيم في يوليو ١٧٨٣م طمع الجزار في الحصول على ولاية الشام، إلا أن السلطان عبد الحميد (١٧٧٣م-١٧٨٩م) عين عليها ابناً آخر لعثمان باشا الكرجي وهو درويش باشا، وبعد وفاة درويش باشا في أواخر عام ١٧٨٥م عين الجزار والياً على الشام ثم عين عليها بعد ذلك ثلاث مرات، وبقية ولاية صيدا ومدينة عكا خاصة مركز قوة الجزار، فلم يتخل عنها حتى عين على ولاية الشام. وطول عهود ولايته الأربع حتى وفاته عام ١٨٠٤م مارس الجزار سياسة العنف والبطش وابتزاز الأموال من الناس، وقضى على معارضيه بلا رحمة أو شفقة، ناشراً الرعب والفزع في بلاد الشام بوجه عام[٢].

ولاشك أن صفحة الجزار كانت صفحة مظلمة حالكة في تاريخ بلاد الشام، لما قاساه الفلاحون والحرفيون من قسوته وظلمه اللذين أديا إلى تدمير عدد كبير من القرى وهجرة أهلها[٣].

---

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص١٠٩.

(٢) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص١٣٨-١٣٩.

(٣) د/ أميل توما، المرجع السابق، ص٦٦.

المماليك والقوى المحلية في العراق

خضع العراق للحكم العثماني في عام ١٥٣٤م في عهد السلطان سليمان القانوني الذي قاد حملة احتل فيها العراق وقضى على الحكم الفارسي في العراق، غير أن هذا الفتح العثماني للعراق لم ينه النزاع العثماني الفارسي حول هذه البلاد، فقد عاد العراق إلى السقوط أكثر من مرة بعد ذلك في يد الفرس[١].

ولاريب فإن موقع العراق الجغرافي يؤثر في تاريخه؛ فبلاد فارس تقع في شرق العراق، وجزيرة العرب مجاورة له من الغرب، والخليج العربي من الجنوب، والمناطق الجبلية من الشمال. ومن ذلك تتضح العوامل الأربعة التي تؤثر في تاريخ العراق، وهي : التهديد الفارسي من الشرق، والاتصال بجزيرة العرب وطبيعة البدو الذين يقومون باتحادات قبلية وعشائرية والتي كانت تمثل خطراً دائماً من شأنه قطع طرق اتصالاتها وإنهاك قواها السياسية والعسكرية، وكذلك النفوذ الأجنبي في الجنوب ثم تنوع الأجناس ووعورة المنطقة في الشمال. ومن أجل الدفاع عن الحدود ورد الأخطار الخارجية اعترف السلطان العثماني بالحكام الأقوياء في العراق، مثل آل الجليلي في الموصل وحسن باشا وأولاده وأتباعه في بغداد والبصرة[٢].

وخلال فترة ضعف الحكم العثماني تعرضت البصرة وبغداد لاعتداءات الفرس وإعادتهما إلى السلطة العثمانية، ومنذ أن استرد العثمانيون بغداد من أيدي الفرس عام ١٦٣٨م وتولي حسن باشا ولاية بغداد عام ١٧٠٤م قاست

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٤، بغداد، ١٩٤٩، ص٤٩-٥٠.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٦-١٠٨.

البلاد من الفوضى وعدم الاستقرار، وتعاقب الولاة على الحكم الواحد تلو الآخر بحيث بلغ عددهم ثمانية وثلاثين والياً، ولم يستطع أي منهم أن يقضي على تلك الأحوال السيئة. إلا أن اعتلاء حسن باشا الولاية كان بداية عهد جديد وطيد الأركان، لما امتاز به من كفاءة وقوة، وقد وجد حسن باشا نفسه أمام مشكلات كبيرة؛ منها فساد الإنكشارية التي تحولت أداة للفوضى والفساد، حتى أنه يمكن القول بأنهم لم يحضروا إلا لتسلم الرواتب، هذا فضلاً عن مشكلات المجتمع العراقي الذي تتحكم فيه العصبية القبلية التي تحول دون احترام الحكومة وإطاعة أنظمتها[1]. لذا فقد كان على حسن باشا استخدام القوة أو ترك الأمور على ماهي عليه.

فقام حسن باشا بتكوين فرقة عسكرية خاصة به من المماليك ودربهم تدريباً عسكرياً، كما علمهم مبادئ الدين الإسلامي الحديث والقراءة والكتابة، وعينهم في وظائف إدارية وعسكرية عليا. وبعد وفاة حسن باشا ١٧٢٣م خلفه ابنه أحمد باشا (١٧٢٣م-١٧٤٧م) والذي سار على نهج أبيه في جلب المماليك والعناية بهم، ووازنت قوة المماليك بل فاقت قوة الإنكشارية والبدو. ولا شك أن تأسيس نظام المماليك الذي توطدت دعائمه في البلاد منذ عام ١٧٠٤م وحتى عام ١٨٣١م إنما يمثل حلاً طبيعياً لمعالجة مشكلات البلاد وإنقاذها من الفوضى [2].

فقد قام حسن باشا بمجهودات كبيرة لإخضاع العشائر العربية، ولم يكن يخرج من حرب مع إحدى العشائر إلا ويشتبك في حرب مع أخرى، ولم تسلم من ضرباته سوى عشيرة قشعم التي كانت تسكن البادية غرب

(١) د/ عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص ١٩٢-١٩٤.
(٢) د/ عبد الكريم غرايبة، المرجع السابق، ص١١٨-١٢٠.

الفرات. وتمكن بالقوة والدبلوماسية من إخضاع القبائل الكردية واليزيدية المتمردة في الشمال، ونجح في عام ١٧٠٨م في استرجاع البصرة من أيدي عشيرة المنتفق بعد قتال استمر أربعة أيام، وإزاء عجز والي البصرة عن الصمود بمفرده في وجه المنتفق فقد فوضت الدولة حسن باشا أمر تعيين من يراه كفؤاً لإدارتها والدفاع عنها، فسلمها إلى زوج ابنته مصطفى أغا. وبذلك أصبحت البصرة تابعة للأسرة الحاكمة في بغداد[١].

وبينما كان العراق يتمتع بعهد من الاستقرار والهدوء كانت الدولة الصفوية تسير نحو التدهور بسبب غزو الأفغان لبلاد فارس، مما أدى إلى سقوط الحكم الصفوي. ولهذا انتهزت الدولة العثمانية فرصة الاحتلال الأفغاني لفارس (١٧٢٢م-١٧٢٩م) وأعلنت الحرب عليها عام ١٧٥٣م، وتوغلت القوات العثمانية بقيادة حسن باشا والي بغداد في بلاد فارس واحتلت كرمنشاه، غير أن حسن باشا مالبث أن توفي وخلفه ابنه أحمد باشا عام ١٧١٣م في ولاية بغداد وقيادة الجيش العثماني في بلاد فارس. وفي ربيع عام ١٧٢٤م و وصل أحمد باشا إلى همدان واحتلها وأصبحت ولاية عثمانية، وقد اغتنمت بعض العشائر العراقية فرصة غياب الوالي وأعلنت تمردها، مما اضطر أحمد باشا لترك الجبهة والعودة إلى بغداد على وجه السرعة، وأنزل بالعشائر المتمردة ضربات شديدة[٢].

ويتميز عهد أحمد باشا بالتصدي لغزوات الفرس على العراق بقيادة نادر شاه في الفترة مابين ١٧٣٢م-١٧٤٣م، ونجح في إفشال مخططات الفرس. لكن محاولات الفرس المتكررة لاحتلال بغداد شجعت العشائر على التمرد

(١) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص ١٣٨-١٣٩.

(٢) د/ أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ النهضة العربية الحديثة، القاهرة،١٩٦٣، ص٢٢٢-٢٢٣.

والعصيان بما بذله من رشاوى ووعود للقيام بأعمال التجسس لحسابه، مما جعل أحمد باشا يؤدب تلك العشائر بعد انحسار نفوذ نادر شاه عن العراق، والذي مالبث أن توفي عام ١٧٤٧م وأعقبه أحمد باشا حيث توفي في العام نفسه[١].

وخلف أحمد باشا سليمان باشا (١٧٤٩م-١٧٦٢م) وهو أول من تولى الحكم في العراق من المماليك، فقد أبدى شجاعة في الدفاع عن بغداد عند حصارها من قبل نادر شاه عام ١٧٣٢م، وعين على البصرة والياً عام ١٧٣٦م. ثم اضطر السلطان العثماني لتوليته والياً على بغداد بعد أن رفض المماليك تعيين وال عثماني لبغداد[٢].

وقد واجه سليمان باشا خلال سنوات حكمه الأولى بعض حركات التمرد العشائرية، إلا أنه استطاع أن يقضي عليها وأن يفرض سلطته على العشائر، فنال بذلك تقدير السلطان العثماني، وأصبح سليمان باشا العدو الرهيب للعشائر الثائرة لشدة بطشه وإقدامه، حتى أنهم أطلقوا عليه اسم «أبو ليلة» لحملاته التي تغير عليهم دائماً في الليل[٣].

وبعد وفاة سليمان باشا اضطربت أحوال الولاية لمدة عامين (١٧٦٢م-١٧٦٤م) نشب خلالهما نزاع عنيف بين المتحفزين للحصول على منصب الباشوية، فقد كان هناك سبعة مماليك مرشحين للحكم تولى كل منهم في وقت ما منصب الكتخدا. وفي ربيع عام ١٧٦٤م تولى عمر باشا الحكم وشهدت فترة ولايته (١٧٦٤م-١٧٧٦م) أحداثاً جساماً: كثورات الخزاعل

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص١١٢.

(٢) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص١٦٥-١٧٠.

(3) Longrigg, S.H., Four Centuries of Modern Iraq, Oxford 1960, pp. 100-105.

والمنتفق والعبيد، واضطراب أحوال كردستان (١٧٧٤م)، وتدخل كريم خان الزند العسكري في العراق، وحصار الفرس للبصرة (١٧٧٥م)[١].

وخلف عمر باشا كل من عبد ا باشا (١٧٧٦م-١٧٧٨م) وحسن باشا (١٧٧٨م-١٧٧٩م) ثم سليمان باشا (١٧٧٩م-١٨٠٢م)، وعرف الأخير في التاريخ باسم سليمان باشا الكبير، وهو يمثل العصر الذهبي لحكم المماليك في العراق، فقد امتدت سلطته من ماردين حتى الخليج العربي، وواجه الثورات العشائرية العنيفة، ولاسيما ثورات الفرات الأوسط واشتداد الخصومات في الموصل والاضطرابات في ماردين، وهجمات السعوديين من الجزيرة العربية. وامتاز عهده بانحسار الخطر عن العراق من جهة فارس التي عمتها الفوضى الداخلية ، مما مكنه من الانصراف إلى الإصلاحات الداخلية والنهوض بالبلد اقتصادياً، فعمل على تنشيط التجارة بتأمين الطرق وتيسير المواصلات النهرية والبرية، كما عمل على توسيع رقعة الزراعة بإحياء بعض الأنهار المندرسة وتطهير القنوات والترع المهملة[٢].

وخلف سليمان باشا الكبير كل من علي باشا الثاني (١٨٠٢م-١٨٠٨م) وسليمان باشا الصغير (١٨٠٨م-١٨١٠م) وعبدا باشا (١٨١٠م-١٨١٣م) وسعيد باشا (١٨١٣م-١٨١٦م)، ويدل قصر عهود هؤلاء الولاة والمؤامرات التي تعرضوا لها من الداخل والخارج على عدم استقرار الحكم المملوكي في العراق[٣].

وكان آخر الولاة المماليك في العراق وأطولهم عهداً هو داود باشا

(1) Longrigg, S.H. :Op.cit., p.110.

(٢) د/ عبد العزيز نوار، تاريخ العراق الحديث، القاهرة ١٩٦٨، ص٢٣.

(٣) د/ عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص٢٣.

(١٨١٦م-١٨٣١م)، فقد شغل منصب الدفتردار والكتخدار قبل أن يعين والياً على بغداد، ورغم أنه تولى الحكم في ظروف قاسية بسبب إفلاس خزينة الحكومة وبسبب الفتنة بين المماليك والإنكشارية والعشائر الكردية وغيرها من العشائر المتمردة فقد اتجه داود باشا إلى تنظيم الإدارة وإقرار الأحوال وإشاعة الرخاء، وكان أكثر الولاة المماليك اهتماماً بالمساجد وأئمتها وخطبائها ومدرسيها، باعتبارهم قادة الرأي العام في بغداد وأهم أداة الدعاية القوية التي تؤثر في نفوس الناس. وحرص داود على تلقي العلوم على كبار علماء عصره، وارتفع في عهده عدد المدارس إلى ثمانين مدرسة بالإضافة إلى عشرين مدرسة لتدريس العلوم والآداب واللغات الفارسية والتركية والعربية، ولم تكن هذه المدارس منتشرة في بغداد فحسب، بل في السليمانية وكركوك والموصل والنجف والحلة وكربلاء والكاظمية والبصرة وغيرها[١].

وتميز عهده بحدوث حادثين هامين هما استئناف القتال مع فارس وإلغاء الإنكشارية، وقد هزم داود باشا في قتاله مع الفرس، ولم يتراجع محمد علي ميرزا حاكم كرمنشاه عن احتلال بغداد إلا بعد أن تفشى الطاعون بين قواته. وفي عام ١٨٢٣م وقعت معاهدة بين والي بغداد وسلطات فارس اعترف بموجبها بالحدود التي كانت سائدة زمن السلطان مراد الرابع. أما الحادث الثاني فهو إلغاء الإنكشارية في بغداد إثر إلغاء السلطان محمود الثاني (١٨٠٨م-١٨٣٩م) لها في استانبول عام ١٨٢٦م وإقامة جيش مدرب على النظام الحديث[١].

(١) انظر عن داود : تاريخ العراق الحديث للدكتور عبد العزيز نوار، القاهرة ، ١٩٦٨، وكذلك: عباس العزاوي، العراق بين احتلالين، جـ٤، ص١٧٠.

وكان داود باشا حريصاً على إبعاد النفوذ الأجنبي عن العراق، فإنه مع استعانته ببعض الأجانب في بعض إصلاحاته، ومع اهتمامه بتسليح جيشه وتدريبه على الأساليب الحديثة إلا أنه ضاق بالنفوذ الإنجليزي الذي يزداد في بغداد يوماً بعد آخر. فلما عزم على وضع حد لتدخلهم في شئون الولاية أخذوا يدسون له في دوائر الباب العالي، ولقي الدس الإنجليزي آذاناً مصغية في استانبول، إذ كانت الظروف مهيأة لذلك، فقد نجم عن إقبال داود تسليح جيشه وتدريبه على الأساليب الحديثة أن ازدادت مخاوف السلطان منه وخشي قيام محمد علي آخر في الجزء الشرقي من إمبراطوريته، وهذا ماجعله أكثر تصميماً للقضاء عليه، خاصة وأنه كان يعمل على تطبيق النظام المركزي المباشر في أرجاء الدولة العثمانية مما اقتضى إقصاء المماليك عن حكم العراق نهائياً[٢] .

وكان داود باشا يرسل بانتظام خلال سنوات حكمه الأولى ماعليه من أموال إلى الباب العالي، ولكن هذا الانتظام في إرسال الأموال تغير فاضطر داود باشا إلى التوقف أحياناً والتأخير ثم القطع، فبرنامجه الإصلاحي والاقتصادي وتهديدات فارس المستمرة له والثورات العشائرية ومؤمرات المطالبين بالباشوية، كل هذا أرغمه على توفير المال اللازم لتحقيق إمكانية التحرك في جميع هذه المجالات، غير أن هذا الامتناع عن إرسال الأموال صار سبباً لتوتر العلاقات بين داود والسلطان، ثم جاء عام ١٨٢٧م ليشهد وقوف روسيا وإنجلترا وفرنسا إلى جانب ثوار المورة، وتطور ذلك إلى إعلان الحرب بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٨٢٨م ومطالبة ولاة الدولة بإرسال

(1) Longrigg, S.H., op. cit., p. 110-115.
(2) Longrigg, S.H., op.cit., p. 128-134.

الأموال اللازمة للمساهمة في المجهود الحربي بالمال أو بتقديم القوات المسلحة للقتال، وقرر الباب العالي أن تقدم ولاية بغداد ستة آلاف كيس أي ما يعادل ٢٤ ألف ليرة تركية ذهبية [١].

غير أن داود باشا امتنع عن إرسال هذه الأموال، فكان هذا الامتناع نذير أزمة بينه وبين السلطان، وظن كثيرون أن داود أعلن العصيان على الدولة، وأنه يجب إقصاؤه عن الحكم. وأرسل السلطان مندوباً لوالي بغداد غير أنه قتل على يد أتباع داود في عام ١٨٣٠م، ولما علم الباب العالي بذلك قرر تنحية داود باشا عن الحكم بالقوة، واختار السلطان والي حلب علي رضا للقيام بهذه المهمة ولتولي ولاية بغداد؛ لمعرفته بأحوال العراق. وصدرت الأوامر إلى ولاة العراق والشام بالانضمام إلى حملة علي رضا باشا[٢].

وبينما كانت الحملة العثمانية تزحف صوب بغداد كان وباء الكوليرا يفتك بأهلها، وزاد الأمر سوءاً وفاة معظم السقائين الذين يقومون بنقل الماء إلى دور الأهالي، ثم جاء فيضان نهر دجلة ليتعاون مع هذا الوباء في بغداد المنكوبة، فهدم الدور والأسوار وعزت الأقوات واضطرب الأمن وكثر اللصوص وقطاع الطرق، وسقط الباشا فريسة المرض واشتد الحصار على بغداد لمد تسعين يوماً، واضطر سكانها إلى فتح الباب الشرقي من المدينة حيث دخله العثمانيون في ١٧ سبتمبر ١٨٣١م وأمعنوا في المماليك قتلاً حتى أفنوهم، إلا أنهم أبقوا على داود باشا واقتادوه إلى استانبول، وتقلد داود بعض المناصب حتى وفاته في المدينة المنورة عام ١٨٥١م [٣].

(١) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص١٧٩-١٨١.

(٢) د/ السيد رجب حراز، العالم العربي في التاريخ الحديث، ص١١٥.

(٣) د/ عبد العزيز نوار، تاريخ العراق الحديث، القاهرة ١٩٦٨م.

وعلى هذا النحو انتهى حكم المماليك في بغداد والذي أعطاها دورها السياسي والإداري، وفرض هيبة واليها على القبائل البدوية والكردية، وأخضع لبغداد البصرة وشهر زور وكردستان. ومنذ عام ١٨٣١م عاد العراق إلى الحكم العثماني المباشر فتولى عليه ولاة من استانبول [١].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه إبان حكم المماليك للعراق كانت سلطتهم تجد دائماً مؤيدين من جانب طبقات السكان في المجتمع العراقي؛ كالتجار والعلماء والعامة، وشارك المماليك سلطتهم هذه أسر محلية حاكمة، وكانت الأسر تحكم حكماً وراثياً أكثر استقلالاً في شئونها الداخلية، وترتبط بالمماليك في الشئون السياسية والعسكرية والاقتصادية [٢].

وقد عاش العراق بعد حكم المماليك تابعاً تبعية مطلقة للدولة العثمانية، وحرص الولاة الذين حكموه باسم السلطان العثماني من عام ١٨٣١م إلى ١٩١٤م على إخضاع العراق للحكومة المركزية باستانبول، وكانت سلطة الباشوات الأتراك ضعيفة على القبائل العربية المتنازعة فيما بينها، وكذلك ضعيفة أمام الأكراد. وقد شهد العراق عهداً من الإصلاح في عهد ولاية مدحت باشا، وواجه العراق الأطماع الاستعمارية الأوربية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وأخيراً خضع العراق للنفوذ الاستعماري الإنجليزي بعد أن احتل الإنجليز العراق إبان الحرب العالمية الأولى [٣].

(1) Longrigg, S.H., op. cit., pp. 187-192.

(٢) عباس العزاوي، المرجع السابق، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٣) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص ٧٠-٧٢.

حركة علي بك الكبير في مصر

كانت السلطة في مصر إبان العصر العثماني المملوكي موزعة بين الباشا العثماني من جهة وبين رجال الحامية أو رؤساء الجند من جهة ثانية، وبين بكوات المماليك من جهة ثالثة. وفي القرن السادس عشر كان التفوق للباشا العثماني ثم حدث بسبب إكثار السلاطين من عزل الباشوات وتعيين غيرهم، وعدم السماح ببقاء أحد منهم في الحكم مدة طويلة خوفاً من طمعه في الانفراد بالسلطة في مصر أن تمكن رؤساء الجند ابتداء من القرن السابع عشر من السيطرة على الموقف وسلب الباشا على سلطته بحيث لم تعد له القدرة على تصريف أمور البلاد [١].

غير أن الصراع لم يلبث أن اشتد بين الأوجاقات العثمانية بعضها بعضاً، وبالذات أوجاق المستحفظان الإنكشارية، وهو من أقوى الأوجاقات واختص بحراسة القلعة، وبين أوجاق العزبان (العزب) مما أدى إلى إضعافهما معاً لصالح المماليك. ولم يكن هذا الصراع هو العامل الوحيد في إضعاف الأوجاقات العثمانية بصفة عامة ذلك أن استيلاء قادة الجند على علوفات (رواتب) جنودهم أو تأخر صرف هذه العلوفات لأي سبب من الأسباب أدى إلى أن التحق الكثير من الجند بأعمال الحرف الصناعية، وانصرفوا عن أعمال الجندية والتحقوا بالحياة المدنية، حتى أصبحوا خليطاً من الصناع والمرتزقة الذين يرفضون حراسة أي باب لقاء أجر يتقاضونه، وهذا رغم بقاء أسرتهم مقيدة في دفاتر الأوجاقات، وقد أسفر هذا الوضع بالطبع عند فقدانهم صفتهم العسكرية [٢].

ولكن هذا التدهور الذي أصاب الأوجاقات العثمانية لم يحدث لأوجاق

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص٩٢.

(٢) د/ عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص١٣٧-١٣٨.

المماليك، ففي الوقت الذي فقد فيه الجند العثمانيون صفاتهم الحربية وألفوا الدعة والراحة ودبت بينهم الاختلافات، كان المماليك يحتفظون بصفتهم العسكرية. وقد انتهى هذا الموقف في القرن الثامن عشر إلى أن أصبح المماليك القوة العسكرية الوحيدة في مصر، مما أفضى إلى سيطرتهم على شئون الحكم [١].

والحقيقة أن العهد الذي سيطر فيه المماليك على الحكم في البلاد كان عهد فوضى واضطراب، ولعل أهم ما يلاحَظ في هذا العهد الذي استمر طيلة القرن الثامن عشر ذلك النزاع المستمر بين البكوات أنفسهم في سبيل السيطرة على الحكم وسلب السلطة من الباشا العثماني، وغدا الأمر كله في أيدي البكوات المماليك [٢].

ومما يجدر ذكره أن المماليك لم يستطيعوا الانفرد بحكم مصر رغم استئثارهم بالنفوذ في البلاد، ويرجع السبب في ذلك إلى انقسامهم إلى جماعات أو فرق مملوكية متنافرة يطلق عليها البيوت المملوكية، وهي تنسب عادة إلى مؤسسيها، ومن هذه البيوت القاسمية والعقارية والعلوية والمحمدية والمرادية والإبراهيمية والإسماعيلية وغيرها، وكل فرق أو بيوت متناحرة تتنازع حول المناصب ،وخاصة منصب شيخ البلد (حاكم القاهرة) وهو من أرفع المناصب المملوكية، ويعتبر هذا المنصب رمز الزعامة والسلطة المطلقة، فكثرت بينها الحروب الأهلية والفتن الداخلية حتى أصبحت هذه الحروب والفتن السمة الرئيسية للحياة السياسية اليومية في مصر [٣].

---

(١) د/ عبد الكريم غرايبة، تاريخ العرب الحديث، ط١، ص٧٣.

(٢) د/ عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ط١، القاهرة ١٩٥٥، ص١٨-٢٠.

(٣) د/ جلال يحيى، مصر الحديثة، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٦٤-١٦٨.

وقد وصف الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر ما سببته هذه الحروب والفتن من فوضى عمت أرجاء البلاد بصفة عامة والقاهرة بصفة خاصة، وذكروا أن خلافات المماليك وحروبهم الداخلية المستمرة كانت السبيل الذي حفظ للسلطان العثماني ظلاً من السلطة والسيادة؛ إذ كان رؤساء البيوت المملوكية وزعماؤها يفضلون وجود الباشا العثماني الضعيف في القاهرة على مجيء آخر قد يكون له من القوة ما يكفي للقضاء على نفوذهم وسلطتهم. ومع ذلك فكثيراً ما كان بكوات المماليك يقدمون على حبس الباشا العثماني في القلعة ويطلبون من الباب العالي عزله فيعزله ويولي مكانه آخر (١).

ويحق لنا أن نتساءل ماذا كان موقف الدولة العثمانية من هذه الفوضى المملوكية، ومن استئثار المماليك بالسلطة في البلاد؟ الواقع أن الدولة العثمانية إبان القرن الثامن عشر انشغلت بحروبها ضد روسيا في أوروبا، وضد فارس في آسيا، مما أنهك قواها وأعاقها عن الالتفات نحو مصر وغيرها من ولايات الدولة. وليس معنى هذا أن الدولة العثمانية رضيت بالأمر الواقع ورضخت لقوة شيخ البلد الذي طغى نفوذه على نفوذ الباشا العثماني، بل على العكس من ذلك فإن الدولة العثمانية في الأوقات التي لاتكون فيها مشغولة بحروبها في أوربا أو آسيا كانت تحاول استرجاع سيطرتها الضائعة في مصر (٢).

ولجأت مصر إلى وسائل خاصة منها إغلاق أسواق الرقيق في البلقان أمام البكوات المماليك، لأنهم كانوا يجددون دماءهم عن طريق شراء الرقيق

(١) د/ عمر عبد العزيز، المرجع السابق، ص ١٤٠.

(٢) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص٩٤.

الأبيض وتدريبهم. وأرسلت الدولة العثمانية حملات تأديبية لردع البكوات المماليك المتمردين على سلطان الدولة [١].

ولما كان بكوات المماليك لا تعنيهم شئون مصر إلا بقدر ما يبتزونه من أموال أهلها بشتى الأساليب والطرق- مما أدى إلى اختلال الأمور وارتباك اقتصاد البلاد وانتشار المجاعات فيها- فإن السؤال الذي يطرح نفسه: ماذا كان موقف الشعب المصري من جور المماليك وظلمهم؟ الواقع أن عامة الشعب المصري في القرن الثامن عشر كانوا لايترددون في القيام بالثورات وبذل أقصى ما يستطيعون بذله من ضروب المقاومة متى اشتدت عليهم قسوة معاملة السلطات الحاكمة، ورفض الفلاحون دفع الضرائب [٢].

وفي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر برزت على مسرح الأحداث في مصر شخصية قوية من بكوات المماليك هي شخصية علي بك الكبير، الذي ثار على الدولة العثمانية واستطاع أن يقيم حكومة قوية في مصر خلال السنوات التي خلصت له فيها السلطة .

علي بك الكبير:

تولى علي بك السلطة (مشيخة البلد) في مصر عام ١٧٦٣م، ولم يكد يستمتع بهذا المنصب قليلاً حتى اضطره أعداؤه ومنافسوه إلى الفرار مرتين من مصر خلال ثلاث سنوات، فأقام في الحجاز تارة وفي غزة بفلسطين تارة أخرى، حتى اضطر إلى العودة إلى القاهرة عام ١٧٦٦م فانتقم من أعدائه وأنزل العقاب الصارم بمحركي الفتن والاضطرابات، واستخدم في ذلك

(١) المرجع نفسه .

(٢) د/ جاد طه، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة، ١٩٨٥، ص٣٥.

أحد مماليكه الذي اشتهر منذئذ باسم الجزار بسبب ما أظهره من قسوة وبطش عند إخماد ثورة أعراب الدلتا (الحبايبة بشرق الدلتا ووسطها، والهنادي بإقليم البحيرة)، وهو الذي دانت له فيما بعد باشوية صيدا ثم ولاية الشام[1].

وكان سويلم بن حبيب زعيم الحبايبة والهنادي بالوجه البحري قد طغى وتجبر ونشر نفوذه بمعظم بلاد الشرقية والقليوبية، وتحكم في الطريق بين القاهرة والموانئ الشمالية، ومارس القرصنة النيلية على نطاق واسع. ولما كان أعراب البحيرة قد انضموا إلى أعداد علي بك فقد أرسل الأخير حملتين للقضاء عليهم ونجحت هاتان الحملتان في التخلص من سويلم والتنكيل بأتباعه، وذكر الجبرتي أن مماليك علي بك عندما قتلوا سويلم قطعوا رأسه ورفعوها على رمح ثم علقوها على باب زويلة [2].

وبعد أن خلص الوجه البحري لعلي بك، لم يلبث أن تطلع لاستخلاص الوجه القبلي، الذي كان يمد القاهرة بالمؤن والغلال من يد همام بن يوسف شيخ عربان الهوارة. ولم يكن همام بن يوسف طاغياً متجبراً بل كان شيخاً كريماً نبيلاً يجير المستجيرين ويقدم لهم المال والرجال والعتاد والسلاح وكل ما يلزم لعودتهم إلى القاهرة حيث المجد والسلطان، ولم يكن علي بك في الواقع يخشى من ازدياد نفوذ همام واتساع أملاكه، لأن همام لم يأت أمراً يخل بالأمن، بل كان حريصاً على إرسال الميري بانتظام، كما كان يرسل بين الحين والآخر الهدايا للباشا العثماني وشيخ البلد بالقاهرة ، وكذلك لكشاف الأقاليم الخاضعة لسلطته، ولكن الذي ضايق علي بك هو تحول الصعيد إلى

(١) د/ السيد رجب حراز، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٥.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٤ أجزاء، القاهرة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م، ط١، ص٥٢٠.

وكر تنبت فيه الفتن ومورد يمد منافسيه على مشيخة البلد بالمؤن والعتاد والسلاح [١].

وعلى ذلك فقد صمم علي بك على التخلص من همام حتى لايجد من تسول له نفسه بالخروج على طاعته مجيراً يحميه إذا نفاه إلى الصعيد، وأرسل لهذا الغرض حملة إلى الصعيد بقيادة مملوكه محمد أبو الذهب. وفي خارج أسيوط تقابل الفريقان وانتصر أبو الذهب وفرت فلول المهزومين إلى فرشوط بالصعيد، ولكن أبا الذهب استطاع أن يكسب إلى جانبه بالحيلة ابن عم همام المدعو أبو عبد ا الذي وعده ومناه بحكم الصعيد، وصد أبو عبد ا هذا الوعد ورفض مواصلة القتال، ولما علم همام بخيانة أقرب الناس إليه مات حزناً وكمداً. وتقرر بذلك النصر النهائي لأبي الذهب وأصبح علي بك سيد الوجهين البحري والقبلي، وصاحب النفوذ المطلق في جميع أنحاء القطر المصري [٢].

وعاد علي بك إلى القاهرة بعد أن قضى على خصومه في الصعيد، وتوجه ومعه أتباعه إلى الديوان بالقلعة وتولى مشيخة البلد كما كان ، واستمر الصناجقة في مناصبهم، وثبت علي بك قدمه في مصر، وقتل المتمردين وشتت شمل المنافقين، وتم ذلك دون نزاع مع الوالي العثماني رغم أن الدولة العثمانية ترفض انفراد شخص بالأمور، وتقف أمام ازدياد سلطة البكوات المماليك، فقد كانت تعمل على إبقاء نار الفتنة بين البكوات حتى يفضوا على بعضهم البعض [٣].

(١) محمد رفعت رمضان، علي بك الكبير، القاهرة، ١٩٥٠، ص٤٨.
(٢) محمد رفعت رمضان، المرجع السابق، ص ٥٠-٥٢، وانظر كذلك: الجبرتي، ط١، ص٨٩.
(٣) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ١، ص٨٥.

وكان والي القاهرة محمد راقم باشا يعضد خصوم علي بك، ويساعد على إرسال حملة لمقاومته تحت رئاسة حسين بك كشكش، ويجمع لهذه الحملة المال، كما نجده يقابل علي بك بعد انتصاره على جيش حسين بك ويقره شيخاً للبلد[١].

وقد أدرك علي بك موقف الباشا محمد راقم ، وتمكن من طرده في عام ١٧٦٨م وحل علي بك مكانه، وأعلن نفسه قائمقاماً عن الباشا، وعمل على كسب ود الدولة العثمانية إلى جانبه عن طريق الهدايا والأموال نظير توليه باشوية القاهرة وإرسال جيش مصري لمساندة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا، غير أن الدولة العثمانية كانت تخشى من احتمال أن يستخدم علي بك هذا الجيش لتحقيق أهدافه بمعاونة روسيا التي كانت تشجع القوى المحلية على الثورة ضد الحكم العثماني. وبناء على هذه الشكوك فقد استطاع علي بك التأثير على المماليك وإقناعهم بأن الدولة العثمانية تعمل على قتل جميع المماليك، وبعد ذلك أعلن علي بك الكبير استقلاله عن الدولة العثمانية، وطلب منهم عدم تعيين باشوات وإرسالهم إلى القاهرة[٢].

وما كاد ينتهي علي بك من توطيد نفوذه في مصر حتى قامت الحرب الروسية العثمانية (١٧٦٨م-١٧٧٤م) والتي أظهرت ضعف الدولة العثمانية العسكري، مما أغرى علي بك على المضي قدماً في تحدي سلطان العثمانيين. وكان علي بك قد طرد الباشا العثماني محمد راقم وامتنع عن دفع مال الميري، وضرب عملة جديدة ، وطرد كل من يُظهر ميلاً للدولة

(١) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص١٥٠.

(٢) عبدالرحمن الجبرتي، مرجع سبق ذكره، ص ٩١.

العثمانية، ثم طمع في نشر سلطانه على الجزيرة العربية أملاً في أن يتخذ من جدة مقراً لتجارة الهند حتى تتحول تجارة الشرق إلى البحر الأحمر وبرزخ السويس بدلاً من ذهابها إلى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، متأثراً في ذلك بآراء صديقه التاجر البندقي كارلوروسني[١].

وأعد علي بك حملة لاحتلال الحجاز منتهزاً فرصة الخلاف حول الشرافة هناك، ونجحت الحملة التي أرسلها علي بك إلى الحجاز بقيادة مملوكه أبي الذهب، فمد نفوذه إلى الحجاز . ونودي بعلي بك في الحرمين الشريفين سلطان مصر وخاقان البحرين، وذُكر اسمه ولقبه هذا على منابر المساجد في الحجاز كلها[٢].

وقد شجعه انتصاره في حملة الحجاز على إرسال حملة أخرى إلى بلاد الشام لشد أزر حليفه الشيخ ظاهر العمر، وعلى أمل أن يلقى تعاوناً من روسيا خصم العثمانيين العنيد في تحقيق مآربه. وكان علي بك على خلاف شخصي مع والي الشام عثمان باشا الكرجي، بسبب نزاع بينهما في الحجاز عام ١٧٦٤م حين كان الأول أميراً على الحج المصري والثاني أميراً على الحج الشامي، وحرض عثمان باشا بعد ذلك أعداء علي بك في مصر ضده، فهرب إلى غزة إلا أن عثمان باشا أمر متسلمه في غزة بطرد علي بك، فعاد إلى مصر عام ١٧٦٦م. وبعد ثلاث سنوات قدم علي بك شكوى إلى السلطان ضد عثمان باشا متهماً إياه بإيواء المصريين الفارين، وطالب بعزله. وفي أوائل عام ١٧٧٠م تحالف علي بك مع ظاهر العمر الذي عرف قوة علي بك أثناء وجوده في غزة[٣].

(١) د/ السيد رجب حراز، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٢٦.

(٢) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص٢٦.

(٣) الجبرتي، نفس المرجع ، ص ٩٢.

والسؤال الذي يطرح نفسه عما إذا كان علي بك قد أراد بغزو الشام أن يصل إلى بلاد الأناضول والأستانة عن طريق الشام فيعتلي عرش السلطنة، أم أراد فقط أن يؤمن ملكه في مصر؟ من المرجح أن حملة علي بك في بلاد الشام كانت مشروعاً للتوسع يرمي من ورائه إلى غرضين أساسيين : أولهما تأمين أملاك حليفه الشيخ ظاهر العمر في بلاد الشام الجنوبية - بوابة مصر الشرقية- وثانيهما القضاء على قوة باشا دمشق وغيره من الباشوات العثمانيين الذين قد تحرضهم الدولة على القضاء عليه في مصر، فقام بتلك الحملة الدفاعية التي اتخذت شكلاً هجومياً لكي يقيم حول نفوذه بمصر سياجاً آمناً دائماً[1].

وتحركت قوات علي بك من مصر براً وبحراً باتجاه الشام في أوائل نوفمبر ١٧٧٠م، واحتل إسماعيل بك قائد هذه القوات غزة والرملة دون مقاومة من أهلها لنقمتهم على مظالم عثمان باشا. وهرع الأخير من دمشق لصد عدوان قوات علي بك ودخل يافا عنوة للدفاع عنها وحين رأى انضمام ظاهر العمر إلى إسماعيل بك وتصميمهما على قتاله انسحب عثمان باشا من يافا عائداً إلى دمشق، واحتلت قوات إسماعيل بك وظاهر العمر بعد ذلك يافا، وكسب الحليفان ميناءً آخر إلى جانب عكا التي كانت بيد ظاهر، واستخدماه لإنزال المعدات المنقولة بحراً إلى مصر. ولم يلبث أن قدم محمد بك أبو الذهب في أوائل عام ١٧٧١م على رأس قوات إضافية وتسلم قيادة الحملة، واستمر أبو الذهب في زحفه حتى احتل دمشق في ٨ يونيو ١٧٧١م[2].

(١) د/ السيد رجب حراز، العالم العربي في التاريخ الحديث ص٩٩.
(٢) المرجع نفسه.

وفي غضون ذلك كان علي بك يعمل جاهداً لعقد المخالفات مع روسيا والبندقية، ومع أنه أخفق في هذا المسعى إلا أنه لقي تشجيعاً من القسيس أورلوف قائد الأسطول الروسي المرابط في بحر الأرخبيل. وكان علي بك قد كتب إلى القائد الروسي مبدياً رغبته في عقد معاهدة تحالف وصداقة مع حكومته، ووعده بأن يمده بكل مايحتاج إليه جيشه وأسطوله من مؤن، وطلب منه أن يزوده بمدافع للحصار ومهندسين. وقد رد عليه أورلوف مهنئاً ومشجعاً على حركته، ووعد بحمل مقترحاته بشأن المخالفة التي عرضها كاترين قيصرة روسيا، ثم شكره عليه من مساعدة ووعد بألا يتأخر في طلبها متى وجد نفسه في حاجة إليها[1].

غير أن محمد بك أبو الذهب قد خان صاحبه علي بك الكبير فقد انسحب أبو الذهب فجأة من دمشق في ١٨يونيو ١٧٧١م وعاد إلى مصر. وقد حاول الكتاب والمؤرخون تعليل هذا الانسحاب فنسبه بعضهم إلى ميل إسماعيل بك للدولة العثمانية وتحذيره لأبي الذهب من غضب الدولة إذا فرغت من حربها مع روسيا، ثم أثار فيه النعرة الدينية فأظهر له حرية قتال سلطان مسلم وأن من عصى السلطان فقد عصى ا والرسول، كما أن الخروج على طاعة السلطان خروج عن دين الإسلام، وأخيراً حرصه على عدم إطاعة أوامر علي بك أو الانسياق وراء رغباته التي أوحتها إليه روسيا[2].

وتصادف قدوم مندوب الباب العالي لتسلم الأموال السنوية على بلاد الشام فاتصل به أبو الذهب ورجاه كسب عفو الدولة بعدم تقديم الاعتذار

(١) الجبرتي، المرجع السابق، ص٩٦.

(٢) محمد رفعت رمضان، علي بك الكبير، ص ١٧٤-١٨٠.

الكافي، وبذا حصل أبو الذهب على وعد سلطاني بالعفو والشياخة على مصر. ويذكر مؤرخون آخرون أن الباب العالي هو الذي أوعز لعثمان باشا والي دمشق بالاتصال سراً بأبي الذهب لكسبه إلى جانب العثمانيين، وقد عقد بالفعل اجتماع سري بين الطرفين بدمشق أبلغ فيه عثمان باشا أبا الذهب بأن السلطان قد وعد بتعيينه مكان علي بك في مصر[1]. وهناك فريق ثالث من المؤرخين ينسب هذا الانسحاب إلى أبي الذهب نفسه، فيقولون إن أبا الذهب كان يدبر منذ زمن طويل وسيلة للقضاء على علي بك، وإنه في جميع خدماته السابقة لمولاه سواء في القضاء على منافسيه أو في حملتي الحجاز والشام إنما كان يمهد لنفسه طريق الحكم والسلطان عندما تنضج الثمرة وتسقط رأس سيده، فلما دخل دمشق وأومأ إليه مولاه بالمضي في الفتح، خشي فوات الفرصة فعاد لقطف الثمرة دون أي اكتراث لما يجب عليه نحو ولي نعمته من إخلاص وولاء[2].

وعلى كل حال فإن انسحاب أبي الذهب من دمشق كان بداية تبدل موقفه من سيده، وسرعان ما اصطدم به على إثر عودته إلى مصر، وتمكن من تأليب البكوات ضده، واضطر علي بك أن يهرب من مصر ويلجأ إلى ظاهر العمر بفلسطين، ثم عاد منها بدعم من قوات ظاهر العمر لقتال أبي الذهب، وبالقرب من الصالحية دارت في ٢٨ أبريل ١٧٧٣م معارك بين الطرفين، وجرح علي بك الكبير ووقع في أسر أبي الذهب ، ثم مالبث أن توفي في ٨ مايو. وأفضى موت علي بك إلى استئثار أبي الذهب بكل نفوذ وسلطة في مصر، واعتمد أبو الذهب على تأييد العثمانيين له في الانتقام من

(١) د/ السيد رجب حراز، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٢٧.

(٢) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص ٢٧.

ظاهر العمر صديق علي بك وحليفه. ونال أبو الذهب معاضدة الباب العالي فاشتبك مع الشيخ ظاهر في معارك حامية انتصر فيها، ولكنه مالبث أن توفي فجأة في ٨ يونيو ١٧٧٥م[١].

وعلى إثر وفاة أبي الذهب عمت الاضطرابات والمنازعات الداخلية بين أتباعه وأتباع علي بك الذين تنازعوا فيما بينهم للحصول على المشيخة والاستبداد بحكومة البلاد، ولما انسحب أتباع علي بك إلى أسوان اندلعت المنافسة من جديد بين إبراهيم بك ومراد بك، حتى أصبحت القاهرة مسرحاً للمؤامرات والدسائس وما يقترن بها من أنواع السلب والنهب والفوضى، وظلت الأمور تسير من سيىء إلى أسوأ حتى مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨م[٢].

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : ماهو موقف علي بك من الدول الأجنبية؟ لاشك أن علي بك قد أقام علاقات وطيدة مع روسيا والبندقة وإنجلترا؛ فروسيا عدوة تقليدية للدولة العثمانية، والبندقية لها مصالح اقتصادية عبر مصر، وإنجلترا مهتمة بتأمين طرق مواصلتها إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر. وكانت روسيا تحاول إثارة الحركات والثورات ضد الدولة العثمانية لإضعافها لكن تحالف روسيا مع علي بك قد أضعف التجارة الخارجية[٣].

وكانت علاقة علي بك مع البندقية تقوم على أساس تنظيم التجارة الخارجية والعلاقات الدولية،ولكن البندقية لم يكن لها شأن يذكر بالنسبة

(١) الجبرتي، المرجع السابق، ص٩٩.

(٢,٣) محمود الشرقاوي، مصر في القرن الثامن عشر، ص ٧١.

للدولة العثمانية نظراً لضعفها وعجزها عن مواجهة الدولة العثمانية[١].

وأما إنجلترا فكانت مهتمة كثيراً بتأمين الطريق البري لتجارتها باعتباره أقصر من الطريق البحري وأوفر في النفقات، ومن هنا كانت استجابة السلطات البريطانية في الهند لما أبداه علي بك من استعداد لاستقبال سفنها في موانيه، كما تعهد ببسط حمايته على المسافرين والتجار الأجانب الذين ينزلون في بلاده. وبسبب هذا التعامل اهتمت إنجلترا بمصر، كما أنها اهتمت بسبب موقعها الجغرافي، ولذا فإن إنجلترا شجعت علي بك ومن بعده البكوات المماليك على الاستقلال عن الدولة العثمانية، وساندتهم بكل قوة في سبيل إحراز هذا الاستقلال[٢].

وأيا كان الأمر فإن شخصية علي بك قوية وإرادته وعزيمته تدفعانه إلى تحقيق طموحاته، فهو جدي متزن ويجالس العلماء وأهل الفكر، كما أنه اشتهر بالقسوة رغم صفاته الطيبة. وفضلاً عن ذلك فقد اشتهر بالإصلاحات والإنشاءات، وبنى القلاع والمساجد والأسبلة والعمائر[٣]. ويؤخذ عليه قلة ثقافته واعتماده على التنجيم والفلك، حتى أنه خضع للمنجمين، ولم تحط به حاشية طيبة تقدم له النصح والإرشاد، ولم يشرك الشعب المصري في تحقيق مشروعاته وتطلعاته[٤].

وأما عن حركته فهناك آراء تفيد بأنه لم يكن يهدف إلى الانفصال التام بمصر عن الدولة العثمانية، فكل ما كان يطمح إليه هو أن تكون له مقاليد

(١) د/ أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ النهضة العربية الحديثة، ص ٢٤٥.
(٢) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص ١٦١-١٦٢.
(٣) محمد رفعت رمضان، المرجع السابق، ص٥٥-٥٧.
(٤) المرجع نفسه، ص ٥٩.

الأمور في مصر ، إلا أن تحركاته وحملاته على الحجاز وبلاد الشام، واتحاده مع الروس تؤكد اتجاهه إلى الاستقلال، وهذا مادفع محمد علي باشا إلى تقليده بعد قرن من الزمن.

obeikandl.com

الأسرة الحسينية في تونس

كان اتجاه الدولة العثمانية إلى شمال أفريقيا يهدف إلى إكمال سلسلة الفتوحات العثمانية في المشرق العربي، وإحكام الحلقة حول البحر المتوسط، بالإضافة إلى مطاردة الأسطول الأسباني وفرسان القديس يوحنا من جزر البحر المتوسط (رودس ومالطة)[١].

ومنذ عام ١٥٧٤م صارت تونس ولاية عثمانية خاضعة للسلطان العثماني، وطبق عليها نظام الحكم العثماني، وكان إلى جانب الوالي الباشا والإنكشارية ورؤساء البحر قوة أخرى لها مكانتها وهي سلطة الدابات والتي تغير اسمها عام ١٧٠٥م إلى البايات[٢].

ومنذ عام ١٦١٢م إلى عام ١٧٠٢م حكمت تونس أسرة البايات المرادية نسبة إلى مؤسسها مراد بك الذي حكم ١٦١٢م-١٦٣١م، وتلاه ابنه حمود الذي استطاع إقرار الأمور في تونس بالقضاء على ثورات القبائل العربية وصد هجمات فرسان القديس يوحنا على السواحل التونسية. وخلف حمود مراد الثاني الذي اشتهر بقسوته، واستمر الصراع بين أبنائه على منصب الباي حتى انتهت الأسرة المرادية بقتل جميع أفرادها، واستغل زعيم الفرسان حسي بن علي الاضطرابات والفوضى حتى نادوا به بایاً على تونس لحب الشعب له[٣].

تمكن حسين بن علي وهو أحد رؤساء الجند من الاستيلاء على الحكم عام ١٧٠٥م بموافقة القادة والأهالي ومبايعة العلماء قبل أن يأتيه فرمان الولاية

(١) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص٧٥.

(٢) إحسان حقي، تونس العربية، بيروت، ١٩٧٠، ص٢٥.

(٣) نقولا زيادة، تونس في عهد الحماية (١٨٨١م-١٩٣٤م)، القاهرة ١٩٦٣، ص١٨.

من استانبـول. هكذا قامت الدولة الحسـينية التي توارثت الحكم في تونس، إذ لم تمض خمـسة أعوام على وجود حسـين بن علي في السلطة حتى أعلن عن نيته في توريث الحكم لأبناء أسرته. وقد استطاع حسين بن علي مؤسس الدولة أن يصلح شئون البلاد ويقضي على نفوذ العـصبيات المسلحة ويبسط هيبة الحكومة، واستعان لذلك بتكوين قوة حربية مجهزة تجهيزاً حديثاً، كما انتشر العمران في تونس وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة[١].

وكـان هؤلاء البـايات يحكـمـون البـلاد حكمـاً مـستـقـلاً عن الدولة العثمانيـة، ولكنهم كانوا يعدون أنفسهم تابعين لها من الناحـية الدينية. وقد تعـاقب البـايات على حكم البـلاد فـتحـقق على يـد بعضـهم الكثـيـر من الإصـلاحات العـمـرانية والإدارية، وقـد حكم تونس في هـذه الفتـرة من تاريخـها ثلاثـة بايات هم : أحمـد باي (١٨٣٧م-١٨٥٥م) ومـحمـد باي (١٨٥٥م-١٨٥٩م) ومحمد الصادق باي (١٨٥٩م-١٨٨٣م)[٢].

ويأتي على رأس البايات الذين تزعـموا الحركة الإصـلاحية الباي أحـمد باشا الذي طبق الإصلاحات في تونس فأنشأ مـدرسة حربية واستقدم بعض الضباط الفرنسيين للتدريس فيهـا، وكذلك استقدم بعض الخبراء في الشئون العسكرية والإدارية والعمـرانية. كما أنه أنشأ جيـشاً قوامه ٢٥ ألف رجل، وأنشأ مصنعاً للذخيرة، وداراً لصناعة السفن، وبنى أسطولاً قوياً اشترك مع الدولة العـثمـانية في حـرب القرم، وكـذلك شـجع الباي على نشـر العلم وإكرام العلماء وعمل على إلغاء الرق[٣].

(١) حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، القاهرة،١٩٥٣، ص١٥٥.
(٢) الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، القاهرة ١٩٥٦، ص١٣.
(٣) صلاح العقاد، المغرب العربي الكبير، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٥٦-١٦٠.

زار الباي أحمد فرنسا وأعجب بمظاهر الحضارة بها، فأخذ بتقليد فرنسا في بناء القصور، ووقعت البلاد في أزمة مالية بسبب الإصلاحات وسلب الأموال من قبل بعض المسئولين، لذا فقد استسلم الباي لنفوذ الدول الأوربية التي تدخلت في شئون تونس عن طريق القروض وإنشاء المدارس والكنائس الأجنبية. فقد تورط التونسيون في علاقاتهم المالية بالأجانب، واستعانوا بالشركات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية في مشروعاتهم، وبذا مهدوا الطريق أمام المستعمرين ليحققوا أطماعهم في البلاد[١].

وكانت الأوضاع في تونس مشابهة تماماً لأوضاع مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا بل كانت النتائج التي ترتبت عليها متماثلة في البلدان ومتقاربة زمنياً.

وجاء بعد الباي أحمد الباي محمد الصادق الذي خضع كلية للنفوذ الأجنبي، وازدادت الامتيازات الفرنسية في تونس بصورة كبيرة، وإن كانت هناك بعض المصالح الإيطالية، فكلتا الدولتين كانت تطمع في الاستيلاء على تونس. واستمرالباي في اعترافه بالسيادة العثمانية والمساهمة معها في الحرب التركية الروسية عام ١٨٧٧م، وفي عهده أصدر الباي محمد الدستور (عهد الأمان)، وفي هذا الدستور محاولة للتوفيق بين الاتجاه الإسلامي متمثلاً في الشريعة الإسلامية، وبين القوانين العصرية في البلاد الأوربية[٢].

هذا وقد نشط جامع الزيتونة في هذه الفترة وقام بدوره الثقافي إلى جانب المدارس والجوامع الأخرى والمكتبات العامة[٣]. وفي عام ١٨٦١م صدرت

(١) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ٥٨-٩٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٩.

(٣) عثمان الكعاك، مراكز الثقافة في المغرب، القاهرة، ١٩٥٨، ص١٠٣-١١٠.

في تونس جريدة الرائد التونسية.

كما نشطت حركة الإصلاحات فأعيد تنظيم القضاء والإدارة والمجالس البلدية ومد السكك الحديدية التي تصل تونس بالجزائر وكذلك بداخل البلاد[١].

وجاء بعد محمد الصادق الباي محمود الذي حكم من ١٨٦٤م إلى مجيء الاحتلال الفرنسي عام ١٨٨١م، الذي اشتهر عهده بأزمة مالية أدت إلى تدخل إنجليزي فرنسي في شئون تونس الداخلية أفضى في النهاية إلى الاحتلال الفرنسي[٢].

وقد كان هذا التدخل الأجنبي في شئون تونس، بالإضافة إلى الامتيازات الأخرى التي منحها البايات للدول الأجنبية (فرنسا، إنجلترا، إيطاليا) الصخرة التي تحكم عليها استقلال تونس، وضاعت ثمرات الإصلاح.

وكانت فرنسا بعد احتلالها للجزائر تترقب الفرصة المناسبة لاحتلال تونس، كما كانت إنجلترا تحرص على أن تحصل على مركز ممتاز في تونس يحول دون تقوية النفوذ الفرنسي أو انفراد فرنسا بالتدخل في شئون تونس. وقد حصلت بريطانيا على امتيازات تجارية، كما كانت بريطانيا حريصة على إبراز تبعية باي تونس للسلطان العثماني. أما إيطاليا فكانت تطمع في الاستيلاء على تونس التي يعتبرونها امتداداً طبيعياً لصقلية، وقد استطاعت فرنسا بالدبلوماسية الذكية أن تقنع الدول الأوربية برغبتها في احتلال تونس، ونجحت فرنسا في مسعاها[٣].

---

(١) جلال يحيى، المغرب الكبير، القاهرة ١٩٦٦، ص ٧٠٠-٧٠٥.

(٢) د/ زاهر رياض، شمال أفريقيا في العصر الحديث، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٨٣.

(٣) د. شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة ١٩٨٠، ص ٤٨٢-٤٨٥.

وهكذا استطاعت فـرنسا أن تحتل تونس مـتذرعة بعبـور قبيلة بني خمـير التـونسـية الأراضي الجـزائرية، وتم احـتـلال تونس في ٢٩ إبريل ١٨٨١م وعرض السفير الفرنسي على الباي نسخة من معاهدة باردو، وأمهله خمس سـاعـات للتوقـيع عليـهـا، وتم ذلك بالفـعل ولم تبـد الدول الأوربيـة أية معارضة؛ لأن موقفها كان متمشياً مع مـصالحها وسياستها الاستعمارية. أما الشعب التونسي فقد ثار ضد المعاهدة فأرسلت فرنسا قوات كثيرة بلغ عددها ٤٥ ,٠٠٠ جندي بمعـداتهم الكاملة للقـضـاء على الثـورة وإعـادة احتـلال البلاد. وفي يونـيو ١٨٨٣م وقع علي باي الذي خلف محـمد الصـادق بعد وفاته معاهدة المرسى التي منحت فرنسا السلطة الكاملة في تونس[١].

وهكذا أصـبحت فـرنسا بمقـتضى مـعاهد المرسى تشـرف على الشـئون الخارجيـة لتونس، بالإضافة إلى إشـرافها على الشئـون الداخلية عن طريق المديرين الفرنسيين الذين أصبحت لهم اختصاصات الوزراء. وبدأت فرنسا تعـدل في نظام الحكم والإدارة في تونس بمـا يحقق مـصـالحـها ومـصـالح رعاياها[٢].

(١) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤٢-٢٤٣، وانظر كذلك : كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٧٢٩.

الأسرة القرمنلية في ليبيا

استولى الأسبان على طرابلس الغرب (ليبيا) ١٥١٠م واستمروا بها حتى عام ١٥٣٥م حينما تنازلت عنها أسبانيا لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يتخذون من جزيرة مالطة مقراً لهم بعد أن طردهم الأتراك العثمانيون من جزيرة رودس ، والذين كانوا يشنون حرباً صليبية ضد الأقطار الإسلامية على البحر المتوسط. وقد ظل فرسان القديس يوحنا يحتلون طرابلس حتى عام ١٥٥١م عندما قام الأتراك العثمانيون وأخذوها منهم بناءً على استنجاد بعض أهلها بالأتراك العثمانيين[١].

وكان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب بمثابة إكمال الحلقة في أملاك الدولة العثمانية، بعد استيلائهم على العراق والشام في أوائل القرن السادس عشر، كما كان استيلاء العثمانيين على طرابلس الغرب يمثل قمة الصراع البحري بين الأسطول العثماني وأساطيل الدول الأوربية في البحر المتوسط[٢].

وقد استمر الحكم العثماني المباشر لليبيا من ١٥٥١م حتى عام ١١٧١م فيما عُرف بالعصر العثماني الأول الذي انتهى ليبدأ حكم الأسرة القرمنلية.

وقد عاشت ليبيا أثناء هذا العصر وبخاصة أواخر القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر فترة من الاضطراب، وعانت من الفوضى الشاملة التي حلت بالبلاد نتيجة سوء الحكم والإدارة وقيام الثورات الشعبية في مختلف أنحاء البلاد، والفتن بين الإنكشارية وتصرفاتهم المشينة التي

---

(١) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص٨٣.

(٢) طاهر الزواوي، ولاة طرابلس، ص ٣٠٤، نقلاً عن رأفت الشيخ، ص ٨٥.

كانت تعتمد على السلب والنهب من الأهالي[١].

وهناك عوامل هيأت الظروف لارتقاء أحمد القرمنلي للحكم في طرابلس والياً عليها، وهي :

١- بُعد طرابلس ليبيا عن الدولة العثمانية وعدم اهتمام الدولة العثمانية بها، علاوة على أن ولاية طرابلس لم تكن تدر أموالاً كثيرة.

٢- عدم رغبة الولاة العثمانيين بسبب قصر مدتهم في القيام بأية إصلاحات تذكر.

٣- سعة رقعة البلاد وقلة عدد السكان، مما أدى إلى قيام الثورات في الداخل .

٤- تمسك الدولة العثمانية باحتلال ليبيا لتأكيد سيطرتها على البحر المتوسط.

٥- كان اهتمام الدولة العثمانية بولاية طرابلس الغرب عسكرياً أكثر منه مدنياً، واقتصرت عناية بعض الولاة على بعض المدن الساحلية. ولذلك لم تنتعش البلاد بل أصبحت مسرحاً للفوضى وسوء الحكم[٢].

أحمد القرمنلي:

أدى ضعف الدولة العثمانية وانهيار تنظيمات الحكم العثماني إلى استئثار الكثيرين من قادة الجند أو زعماء العصبيات المحلية بالسلطة المحلية في بلادهم، ومن بين هؤلاء أحمد يوسف القرمنلي مؤسس الأسرة القرمنلية،

(١) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص٨٥.

(٢) حسن محمود، ليبيا بين الماضي والحاضر، القاهرة، ١٩٦٢، ص١٨٠.

وهو من أصل عثماني إذ يرجع موطن أسرته إلى مدينة قرمان ببلاد الأناضول ، وقد اتخذت أسرته من ليبيا وطناً لها وامتلكت بعض المزارع والنخيل، واندمجت مع أهل البلاد وصاهرتهم. وولي أحمد القرمنلي مناصب عسكرية مختلفة واستطاع بدهائه أن يكسب ثقة الجند وأعيان البلاد، فاختاروه والياً عام ١٧١١م، ولكن كان عليه لكي يدعم مركزه أن يستميل إليه الباب العالي ويكسب مودة السلطان العثماني حتى يصدر فرماناً بتعيينه، وأن يقضي على الفتن والاضطرابات الداخلية وينشر الأمن في البلاد ، وأن يحسن السياسة مع الدول الأجنبية التي كانت لها علاقات بليبيا، وأخيراً أن يبذل الجهود للنهوض بالبلاد بعد أن ساءت أحوالها نتيجة لسنوات الفوضى السابقة التي أوقعت الخراب والدمار الاقتصادي بحكومة البلاد[١].

والواقع أن مشكلات أحمد القرمنلي مع الأستانة كانت قد بدأت بعد أيام من توليه الولاية، ذلك أن خليل باشا الذي فر إلى العاصمة العثمانية أقنع الباب العالي بإرسال حملة للقضاء على أحمد القرمنلي، وحصل خليل باشا على فرمان وأمر سلطاني بالموافقة على إرسال الحملة، ولكن أحمد القرمنلي استطاع هزيمة قائد الحملة خليل باشا وبذلك استطاع أحمد باشا القرمنلي أن يوطد حكمه[٢].

وأرسل أحمد باشا القرمنلي وفداً إلى استانبول ليشرح ويبرر مقتل الوالي السابق خليل عثمان، وليطالب بأحمد والياً على طرابلس، وكان الوفد يحمل معه هدايا ثمينة ولكن الباب العالي لم يستجب لمطلب الوفد، وإنما

(١) محمود الشنيطي، قضية ليبيا، القاهرة ١٩٥١، ص٢٤.

(٢) أحمد الدوجاني، أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين ١٨و١٩، طرابلس ، ١٩٦٥، ص ٢٦.

أرسل مبعوثاً خاصاً وهو جانم خوجة للتحقيق في مصرع خليل، وفشل المبعوث العثماني برغم استقباله بحفاوة وتكريم دون أن يحقق شيئاً، وقد أهداه القرمنلي هدايا فاخرة. وتابع أحمد إرسال الهدايا للسلطان حتى ولاه على طرابلس ومنحه لقب باشا عام ١٧١١م، وبذلك نجح أحمد القرمنلي في بلوغ هدفه الأول[١].

واتجه أحمد باشا القرمنلي (١٧١١م-١٧٤٥م) بعد ذلك للتخلص من جميع الطامعين في الولاية من الضباط الأتراك ومن العناصر التي شك في ولائها، فانتهز فرصة إحدى المناسبات الخاصة وأقام في بيته الريفي مأدبة كبيرة دعا إليها حوالي ثلاثمائة من خصومه، فلما اكتمل حضورهم أمر جنوده بذبحهم جميعاً، ولم ينجُ أحد من هذه المذبحة الرهيبة[٢].

وهكذا تمكن أحمد القرمنلي من السيطرة على ليبيا، غير أن الأمور لم تهدأ كما كان متوقعاً، إذ كان سكان المدن قد ألفوا أعمال الشغب والفوضى، كما أن سكان المناطق الداخلية دأبوا على الامتناع عن دفع الجزية المعتادة بسبب الفقر والبؤس المنتشرين في البلاد . ونجح نفر من أعداء الباشا في الداخل في إثارة بعض البلدان، فحصلت بعض الثورات لكن أحمد القرمنلي تمكن من إخمادها جميعاً بفضل قوته وحسن تصرفه ومؤازرة أعوانه وقواده، وذلك بسبب عدم تنظيمها[٣].

أما بالنسبة لعلاقاته بالدول الأوربية فقد أظهر أحمد القرمنلي في بادئ الأمر قوة وصلابة، فقد استفاد من التنافس الأوربي والبريطاني والفرنسي

(١) أحمد الدجاني، المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨.
(٢) حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٢.
(٣) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص١٣٣.

والهولندي فـأقام علاقات طيـبة مع قناصل هذه الدول في طرابلس، ونجح في تقدير المواقف واتخـاذ المسلك الأكثر ملاءمة، فكان يبـدو أمام القناصل مرة متشدداً ومرة أخرى متساهلاً[١] .

وكانت علاقـات أحمد القرمنلي مع الدول الأوربية تتـسم بالعداء بسبب سياسـته البحريـة القائمة على توجيـه سفن الأسطول لمهاجمـة سفن الدول الأوربية. كـما فرض على هذه الدول دفع إتاوات تنظمـها معـاهدات نظير عدم تعـرض سفن أسطوله لسفنهـم وتجارتهم، وقد دفـعت هولندا وإنجلترا الجزية لقاء عدم الاعتداء على سفنهما العاملة في البحر المتوسط[٢].

وقـد اهتم أحمـد القرمنلي بالأسـطول، وعمل على تجـديده وتحسـينه، وأضاف إليه عدداً كبـيراً من السفن الحديثة التي أعاد بها ما كـان لساحل ليبيا من أهميـة وشهرة أيام درغوث باشـا، كما بنى داراً لصناعة السـفن، وكان على رأس الأسطول رئيس البحـرية أو قبطان الميناء ومهمـته الإشراف على سفن الغزو وتـفريغها وتحصـيل الضرائب الجمركـية، وكانت أكبـر صعوبة صادفها الباشا في بناء أسطوله البـحري هي الحصول على الأخشاب والمواد الحديدية اللازمة لذلك، بسبب فقر البلاد فيهما، ومع ذلك تمكن من التغلب على هذه الصعوبة عن طريق جلب الأخشاب من الشام والبندقية [٣].

ومهما يكن من أمر فإن حكم أحمد باشا قد استمر في ولاية طرابلس مدة ٣٤ عاماً، استطاع خلالها تثبيت حكم الأسرة القرمنلية وتوطيد سيطرتها في كل أنحاء البلاد، وقاد الجيوش بنفسه للقضاء على الفتن والثورات الداخلية

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص١٣٣.
(٢) د/ زاهر رياض، شمال أفريقيا في العصر الحديث، ص ١٠٥.
(٣) د/ السيد رجب حراز ، المرجع السابق، ص ١٣٤.

لكي يتفـرغ للإصلاحات الداخليـة وتعمير الـبلاد وإنشاء المساجـد والقلاع والحصون، وعُرف عنه استمراره في إرسـال الهدايا للسلطان العثماني حتى يضمن بقاءه في الولاية ويعتبر عهده أحسن عهود الأسرة القرمنلية[١].

محمد باشا القرمنلي:

عندما شعر أحـمد باشا بعجزه عن إدارة شئون البلاد عـهد إلى ابنه الأمير محمد قـبل وفاته بتولي الحكم، ولذلك فعندما توفـي أحمد عام ١٧٤٥م تم الاعتراف بابنه محمد حاكماً على البلاد وبايعه أهلها.

وقد سـار محـمد بـاشا القـرمنلي (١٧٤٥م-١٧٥٤م) على النهج الذي اختطه والده من قـبل، فاهتم بالأسطول اهتمامـاً بالغاً حتى تبوأت الـبحرية الليبـية في عهده مكانة مـرموقة، كما أخـمد الفتن وحركات التـمرد بنفس الشدة الـتي كانت عند أبيـه، وعامل الدول الأوربيـة بنفس الأسلوب الذي كان والده يعـاملها به، وعقـد مع النمسـا معاهدة عـام ١٧٤٩م وأخرى مع الدانمرك في العام نفسه، وذلك بعد أن وعـدت الدانمرك بدفع مبلغ كبير من المال للباشا، وعقد مع إنجلترا عام ١٧٥١م معاهدة تعهد فيها باحترام السفن الإنجليزية، وفتح موانـئ ليبيا للتجارة الإنجليزية والتـرخيص لقنصل إنجلترا بزيارة جميع الموانئ الليبية دون قيد[٢].

وكان قادة البحرية الليبيون يندفعون في عهد محمد القرمنلي حتى شمال البحر المتوسط، فيهاجمون السفن ويغتنمون مافيها، وكان لهذه الأعمال رد فعل من قـبل الدول الأوربية، فكانت الدول الضـعيفـة منها تلجأ إلى عـقد

(١) طاهر الزواوي، المرجع السابق، ص٢٢٣.

(٢) أحمد الدجاني، مرجع سبق ذكره، ص٣٤.

معاهدات مع والي طرابلس لتأمين تجارتها نظير دفع مبالغ معينة سنوياً، وأما الدول القوية فكانت تمارس الضغط على الباشا وتقوم بمظاهرات بحرية عنيفة في ميناء طرابلس. وكان الباشا يعرف كيف يفرق بين هذين النوعين من الدول، فيتقبل هدايا النوع الأول ويقدم للنوع الثاني التوصيات عن الأضرار التي يلحقها قباطنته وانتهاكهم لحرياتها، وكثيراً ما كان يأمر بإعادة السفن المغتصبة. ولم تطل ولاية محمد باشا، فبعد عشر سنوات من الحكم توفي عام ١٧٥٤م وخلفه ابنه علي القرمنلي[١].

ويبدو أن علي باشا القرمنلي قد أُرغم على التنازل عن العرش عام ١٧٩٥م تحت ضغط الإنكشارية والتذمر الشعبي لابنه أحمد باشا الثاني القرمنلي، إلا أن أخاه الأصغر يوسف الطموح تمكن من اغتصاب الولاية منه بعد ظهر يوم ١١ يونيو ١٧٩٥م.

يوسف القرمنلي باشا:

اعتلى يوسف باشا كرسي الولاية وتثبت حكمه بموجب فرمان من استانبول، واستطاع أن يحكم ليبيا مدة طويلة (١٧٩٥م-١٨٣٢م)، وامتدت سلطته إلى كل أنحاء البلاد، فشملت أقاليم طرابلس وبرقة وفزان، ولذا اعتُبر أعظم امراء الأسرة القرمنلية على الإطلاق، فقد اتصف بالشدة والبطش غير أنه لم يمارس هذه الأعمال بل امتاز بصرامة عادلة كانت تشوبها كياسة[٢].

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢) د/ رأفت الشيخ، مرجع سابق، ص٦٨.

والواقع أن يوسف قد تمتع بثقة الأهالي، فقد تعامل في بداية حكمه مع القوى المختلفة (وهي جند الإنكشارية والقبائل والدول الأوربية)، أما القوة الأولى وهي الإنكشارية فقد استخدمها لتحقيق أغراضه في التخلص من الثورات الداخلية وفي ممارسة أعمال الحرب البحرية ضد السفن الأوربية. وقد اعتمد يوسف على القبائل مما منحه قوة في تعامله مع جنده، أما القبائل العربية فقد شعرت بأن عهداً جديداً قد بدأ وأحسن حالاً من سابقه، ولكن لم تمض سنوات قليلة حتى قامت ثورات القبائل في جميع أنحاء البلاد، ولكن يوسف تمكن من القضاء عليها بشدة، غير أن هذه الثورات قد زلزلت أركان الحكم في ليبيا خاصة بعد أن أفلست الخزينة ولم يتمكن الوالي أن يرسل الجيوش لقمع الثورات، فكثيراً ما اضطر يوسف القرمنلي إلى مهادنة الثوار ويعترف بالزعيم الثائر حاكماً لمنطقة الثورة[1]. وقد بلغت ولاية طرابلس في عهده درجة من الرقي والتقدم أكثر من مثيلاتها في المغرب.

وعلى الرغم من أن يوسف باشا كان يثير من حين لآخر غضب الدول الأوربية الكبرى بسبب الانتهاكات التي يقوم بها المغامرون الليبيون، إلا أنه ظل يحمل مشاعر طيبة لفرنسا. والحقيقة أن فرنسا كانت تعمل على توثيق علاقاتها بيوسف باشا، إيماناً منها بأهمية الشاطئ الليبي من الناحية الاستراتيجية في البحر المتوسط، وخاصة أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر (١٧٩٨م-١٨٠١م)، وفي أثناء استمرار الصراع بين فرنسا وإنجلترا حتى سقوط إمبراطورية نابليون الأول، ويرجع ذلك لقرب الشواطئ الليبية

(١) د/ نقولا زيادة، ليبيا من الاحتلال إلى الاستقلال، ص ٤٤.

من مالطة وإمكان تموين هذه الجزيرة من ليبيا، ولأنه كان يتعذر تموين الأسطولين الإنجليزي والفرنسي من ليبيا إذا أظهر الأهالي عداءهم لها[١].

ومما يجدر ذكره أن الحملة الفرنسية قد جاءت إلى مصر عام ١٧٩٨م بعد سنتين من بداية حكمه في طرابلس، وتولى محمد علي ولاية مصر عام ١٨٠٥م، وغزت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠م، وحدث صِدام عسكري بين الباشا والولايات المتحدة الأمريكية، إلى جانب التنافس بين إنجلترا وفرنسا حول ليبيا. فكيف كانت علاقات الباشا مع كل الأطراف؟[٢]

وبعد أن احتل بونابرت مصر تم تحطيم أسطوله في موقعة أبي قير البحرية في أكتوبر ١٧٩٨م أرسل نابليون بونابرت إلى القنصل الفرنسي في طرابلس رسالة طلب إليه فيها أن يبلغ يوسف باشا بنبأ الكارثة التي حلت به في أبي قير ورغبة بونابرت في إرسال بريده إلى فرنسا عن طريق طرابلس وتحت حماية يوسف باشا، فضلاً عن قيام الباشا بإرسال المؤن والأغذية اللازمة من ليبيا إلى الحامية الفرنسية التي تركها في جزيرة مالطة. وقد أقام يوسف باشا علاقات طيبة مع فرنسا، وتم عقد معاهدة بين القنصل الفرنسي ويوسف باشا عام ١٨٠١م تؤمن لنابليون ما أراد[٣].

واستاءت الدولة العثمانية من هذا الاتفاق، كما استاءت إنجلترا أيضاً، فقد طلبت الدولة العثمانية من يوسف باشا أن يقود جيشه إلى مصر لمحاربة الفرنسيين من جهة الغرب، وذلك في إطار المخطط العثماني الإنجليزي لمواجهة الحملة في مصر من جميع الجهات، فرفض يوسف باشا ذلك مبرراً

(١) د/ نقولا زيادة، المرجع السابق، ص٤٩.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.

بعدم كفاية قواته العسكرية وسوء حالة البلاد المالية[١].

ولم يطق الإنجليز هذا الميل الذي يبديه الباشا نحو فرنسا عدوتهم، وأشعروه بعدم الرضا عن موقفه وطلبوا منه قطع علاقاته بفرنسا وتسليم الفرنسيين والمشتبه في أنهم يعملون لمصلحة فرنسا، فرفض ذلك مما دفع إنجلترا بفرض حصار شديد على الموانئ الليبية، وهددت إنجلترا بقصف طرابلس بالقنابل فرضخ لأوامر إنجلترا وسلم القنصل الفرنسي ومواطنيه، وكذلك سلم المراكب الفرنسية الراسية بميناء طرابلس، وصادر أملاك الفرنسيين أيضاً ، واستمر الصراع بين فرنسيا وإنجلترا حول النفوذ في ليبيا[٢].

ورغم ذلك فقد ظل يوسف باشا صديقاً لبونابرت وفرنسا، فمنع قباطنة البحر من مهاجمة السفن الفرنسية، وواصل إرسال البريد إلى القاهرة، واستمر محافظاً على صداقته للفرنسيين رغم سوء أحوال حملتهم في مصر. غير أن الأمور قد بدأت تسير على غير ما كان يتوقع يوسف باشا، فاحتلت إنجلترا جزيرة مالطة وبدأت مقدمات الهدنة بين إنجلترا وفرنسا التي انتهت بعقد صلح أميان ١٨٠٢م. ومع ذلك احتفظ يوسف بصداقته لفرنسا ولم يغير موقفه منها كما كان متوقعا، ويرجع ذلك إلى خوفه من أن يسترد السلطان العثماني سيطرته على ليبيا وحكمها حكماً مباشراً، فضلاً عن رغبة الباشا في الحصول على تأييد فرنسا ومساعدتها في حالة وقوع أي نزاع بينه وبين استانبول، ولهذا أظهر ارتباطه بفرنسا علنية، فأعلن في ٢٠ مارس ١٨٠٢م عن عقد الصلح معها، ولما عاد القنصل الفرنسي بوسييه إلى

(١) حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠.

(٢) د/ السيد رجب حراز، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٨.

طرابلس استقبله الباشا استقبالاً ودياً كريماً ، وقدرت فرنسا ذلك وأرسلت للباشا هدايا ثمينة[١].

أما عن علاقات الباشا مع الولايات المتحدة الأمريكية فقد اتسمت بالتوتر وشابها نوع من الفتور، وذلك بسبب مهاجمة السفن الأمريكية في البحر المتوسط، فقد أسر قباطنة البحر الليبيون سفينة أمريكية ثم أعيدت بعد جهد وبعد دفع إتاوة كبيرة. لذا فقد طالب القنصل الأمريكي بحرية مرور السفن الأمريكية، وطالبه الباشا بدفع إتاوة كبيرة فهدد القنصل الأمريكي بالحرب لكنه أجرى مفاوضات مع الباشا دون نتيجة، فأعلن الباشا الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية وأنزل العلم الأمريكي من فوق القنصلية الأمريكية بطرابلس ومزقه علنا، فاضطر القنصل إلى مغادرة طرابلس برفقة أسرته[٢].

وازدادت العلاقات الأمريكية الليبية سوءاً بسبب حادث الفرقاطة الأمريكية «فيلادلفيا» التي أسرت من قبل البحارة الليبيين ، فقد سبب هذا الحادث للأسطول الأمريكي العار والذل ، علاوة على خسارة الأسطول خاصة وأن الفرقاطة تمثل ثلث القوة الضاربة للأسطول الأمريكي، وكان وقوعها في أيدي الطرابلسيين يزيد من قوتهم البحرية ويعزز من موقفهم في المفاوضات وإملاء الشروط التي يريدونها[٣].

وحاول الأمريكيون استعادة فيلادلفيا وفشلوا في ذلك، ثم لجأوا إلى نسفها حتى لاتستفيد منها البحرية الليبية، ثم شرعوا في محاصرة طرابلس

(١) طاهر الزواوي، المرجع السابق، ص ٣٣٣.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) د/ نقولا زيادة، مرجع سبق ذكره، ص٤٩.

وشنوا هجمات خاطفة دون جدوى، مما دفع الحكومة الأمريكية إلى إرسال حملة برية إلى طرابلس بقيادة أيتون قنصل أمريكا السابق في تونس، وذلك لإجبار يوسف القرمنلي على الموافقة على الطلبات الأمريكية[١].

ومهما يكن من أمر فقد وصل أيتون إلى مصر واتصل بأحمد القرمنلي في الفيوم وعقد معه اتفاقاً يقضي بإعادة تثبيته على العرش، وأن يتعهد بدوره بتسديد نفقات الحملة بعد إحراز النصر، وأن توكل قيادة هذه الحملة إلى أيتون. وما أن جمع أحمد القرمنلي أعوانه حتى تحركت الحملة في ٨ مارس ١٨٠٤م في اتجاه الحدود الليبية ووصلت درنة بمساعدة الأسطول الأمريكي في ٢٦ إبريل١٨٠٤م، ولكن الحملة لم تستطع مواصلة زحفها على طرابلس لنقص الإمدادات والذخائر، ولذا يمكن القول بأن انتصار الأمريكيين لم يكن حاسماً، فتهيأ الجو لفتح باب المفاوضات بين الطرفين من جديد[٢].

وفي ٤ يونيو ١٨٠٥م تم توقيع الصلح بين الولايات المتحدة الأمريكية ويوسف باشا، فنصت المعاهدة على تبادل الأسرى وجلاء القوات الأمريكية عن ليبيا، وتتعهد الحكومة الأمريكية بعدم التعاون مع سكان طرابلس المعادين للوالي. وحرمت المعاهدة بين الأسرى والغنائم الذين تستولي عليهم أية دولة أخرى من الجمهورية الأمريكية في موانئ ولاية طرابلس، ولا تطالب حكومة طرابلس السفن الأمريكية المحملة بالغنائم بدفع شيء باسم العوائد[٣].

---

(١) د/ السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص١٤٠.

(٢) د/ نقولا زيادة، مرجع سبق ذكره، ص٤٧.

(٣) المرجع نفسه.

على أنه بينما كان يوسف باشا منصرفاً للتغلب على المصاعب الخارجية التي واجهته كان الضعف قد بدأ يدب في الأسرة القرمنلية، فانتشرت الفتن الداخلية وثورات القبائل التي تعودت الحياة الحرة المطلقة وعدم الإذعان لمثل أي سلطة حاكمة، وشملت البلاد الاضطرابات والفوضى، وكان من أسباب عجز الحكومة من استعادة سيطرتها بُعد العاصمة طرابلس عن سائر الأقاليم، وصعوبة المواصلات، فامتنعت بعض الجهات عن دفع الضرائب مثل غدامس، ونبذ عامل قائمقام لواء فزان طاعة الحكومة، ثم كثرت المنازعات بين القبائل كما حدث بين قبائل نالوت وبني نوير وقبائل سرت وأورفلة[1].

وكان من الطبيعي أن يقل دخل البلاد وأن تختل مواردها لما أصاب الإدارة الحكومية من فساد، كما أن الحد من نشاط البحرية الليبية قد ألحق ضربة مميتة بخزينة الولاية، ولم تعد الضرائب التي تجبى من الأهالي كافية للحفاظ على أسطول صغير والقيام بشئونه، ولذا ظل الأسطول معطلاً مشلولاً وحولت سفنه إلى العمل التجاري لكنها كانت تدر دخلاً ضئيلاً لا يكاد يفي بنفقات بحارتها، وعجزت الخزينة عن مواجهة متطلبات تمويل الجيش البري لحفظ الأمن والنظام في الولاية وجباية الضرائب. وعمل يوسف باشا لإنقاذ نفسه، وحكومته من الإفلاس بشتى الطرق، فلجأ إلى الاستدانة من الرعايا الفرنسيين والبريطانيين، وإلى رفع قيمة الضريبة على الأفراد والزرع فانتشر التذمر بين الناس، وضغطت الدول الأوربية عليه لتسديد ديونه فتهرب من ذلك بتقسيم الديون بين أبنائه، ولكنه لم ينجح في هذه المحاولة[2].

(١) د/ رأفت الشيخ، المرجع السابق، ص١٠٤-١٠٥.

(٢) د/ السيد رجب حراز، العالم العربي في التاريخ الحديث، ص١٤١.

وطالب القنصل الإنجليزي مارنجتون في ١٦ يوليو ١٨٣٢م من يوسف باشا أن يدفع ديون الرعايا البريطانيين مهدداً بإعلان الحرب ضده إن لم يدفعها، ولذلك اضطر الباشا إلى فرض ضريبة جديدة غير مألوفة لدى الشعب ففرض ضرائب على المنازل وكذلك فرضت ضرائب استثنائية على الإنكشارية فرفضوا هذه الضريبة وتم إلغاؤها، ولكن الإنكشارية بدعم من القنصل الإنجليزي رفضوا الاعتراف بسلطة الوالي يوسف باشا القرمنلي، وأدى ذلك إلى قيام ثورة ضد الوالي انتهت بتنازله عن الحكم لولده علي في ١٢ أغسطس ١٨٣٢م[١].

قابل سكان طرابلس تغيير رئيس الدولة بالارتياح، غير أن الثوار بقوا معارضين له معارضة شديدة، واستمر حصارهم للمدينة براً معتمدين على مساعدة القبائل في المنطقتين الشرقية والغربية. ومع أن موقف علي باشا القرمنلي (١٨٣٢م-١٨٣٥م) أخذ يتحسن يوماً بعد يوم، وخصوصاً بعد الانتصار الذي أحرزه في الزاوية إلا أن الثورة العنيفة بقيت مشتعلة، ولم تلبث الدولة العثمانية أن قررت التدخل لعزل علي باشا واسقاطه عن العرش وإعادة حكمها المباشر إلى طرابلس. ومن الأسباب التي دعت العثمانيين إلى التدخل احتلال فرنسا للجزائر مما دفع السلطان محمود الثاني عام ١٨٣٥م إلى إرسال أسطول إلى طرابلس بقيادة مصطفى نجيب الذي أخرج علي باشا الثاني القرمنلي من البلاد ونفاه إلى استانبول، وعادت ليبيا مرة أخرى ولاية عادية من ولايات الدولة العثمانية. وقد حكم العثمانيون مدة ٧٧ سنة في العصر العثماني الأخير، تولى الحكم خلالها ثلاثة وثلاثون

(١) د/ حسن سليمان محمود، مرجع سابق، ص١٨٥.

والياً، وقد اهتم الولاة بالقضاء على ثورات البلاد لكنهم أهملوا النواحي الاقتصادية والعمرانية، وانتهى الحكم العثماني عام ١٩١١م بعد احتلال إيطاليا لليبيا.

نشأة إمارات الخليج العربي

كانت قبيلة بني خالد أقوى القبائل العربية في شرقي الجزيرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان سلطانها يمتد من قطر جنوباً حتى الكويت[١] والعراق شمالاً أي أن جميع شواطئ الخليج العربي الغربية من قطر إلى العراق كانت تحت سلطان شيخ بني خالد. وتاريخ نفوذ بني خالد في شرقي الجزيرة أقدم بالطبع من القرن الثامن عشر، إذ يبدو أن ملكهم قد بدأ في تلك الديار في القرن السادس عشر، إلا أنه رسخ في الفترة التالية. وكان باستطاعة شيوخ بني خالد أن يتحدوا تحرشات أشراف مكة بيهم أواخر القرن السادس عشر عندما أراد هؤلاء أن يتحدوا سلطان بني خالد في الأحساء، ويغلب على الظن أن شيوخ بني خالد لم يكونوا على علاقات طيبة مع العثمانيين الذين مدوا سلطانهم على العراق (١٥٣٤م-١٥٣٥م) ثم فتحوا الأحساء - بمساعدة قبائل المنتفق - عام ١٥٥٥م وأقاموا فيها حكماً عثمانياً بعد أن أزالوا عنها سلطان آل جبري، وهم من قبيلة قيس، ولكن الحكم العثماني في الأحساء ما لبث أن انهار عام ١٦٧٠م بفضل نضال قبيلة آل حميد من بني خالد.

(١) أجمع الذين كتبوا عن تاريخ الكويت أن أصلها تصغير «الكوت» وتعني الحصن الصغير أو القلعة، وهي كلمة هندية الأصل في الغالب، نقلها البرتغاليون إلى الخليج العربي في القرن السادس عشر، ولو أن «الكوت» كما يعرفه سكان هذه الجهات عبارة عن مجموعة من البيوت المتلاصقة التي تُعد لحفظ حاجيات الإنسان من وقود ومتاع، وهو يشبه القرية الصغيرة. ولا تطلق كلمة الكوت عادة إلا على مكان قريب من البحر أو النهر، ويصلح لرسو السفن.
انظر : د/ بدر الدين عباس الخصوصي، الخليج العربي، ط١، ص٦٣-٦٤.

ولم يكن بنو خالد يسيطرون على الأحساء بواحاتها الخصبة نوعاً فحسب، بل خضعت لهم مدن هامة وموانئ مزدهرة في هذه الحقبة، مثل القطيب والعقير، فمن هذين الميناءين كانت القوافل تصل إلى بلدان نجد في الداخل محملة بالسكر والبن والتوابل الآتية من الهند واليمن. وكان بنو خالد ينقسمون قبلياً إلى شطرين فمنهم من استقر بالمدن والقرى، وآخرون فضلوا حياة البادية. ولما كانت المدن في الجزيرة العربية تطلب الحماية من بعض القبائل البدوية النازلة في جيرتها فقد أضحى بمقدور القبائل المتنقلة من بني خالد أن تمنح تلك الحماية لسائر المدن في منطقة ملكهم . أما مقر تلك القبائل المتنقلة فكان على مايبدو هو واحة الأحساء نفسها ومن ذلك المقر كانت تتوجه غزوات بني خالد إلى نجد غرباً ، وكذلك إلى البصرة شمالاً حيث اصطدموا بقبائل الظفير النازلة بأطرافها. وقد ظل بنو خالد يسيطرون على الأحساء حتى انتزعها منهم السعوديون في العقد الأخير من القرن الثامن عشر.

وكان عدد من قبائل عنزة - أكبر القبائل في وسط الجزيرة العربية - قد اتحدوا أواخر القرن السابع عشر تحت اسم العتوب أو العتب أو بني عتبة[1]، وانتقلوا من القسم الجنوبي من وسط الجزيرة، بسبب الجفاف إلى شواطئ الخليج العربي حيث تقرقوا، ثم التقوا عند الكويت، وهناك شكلوا في حوالي منتصف القرن الثامن عشر كتلة مستقلة عن بني خالد. واشتهر بين

(١) ترجع هذه التسميات إلى الأصل الثلاثي «عتب» وهو قول معناه : أكثر من الترحال من مكان إلى آخر. ويروي الكولونيل ديكسون الذي عاش في الكويت منذ عام ١٩٣٦م حتى وفاته عام ١٩٦٠م، والذي شغل منصب المعتمد البريطاني، وكان على اتصال مباشر ودائم بأهل الكويت وحكامها أن أمير الكويت الشيخ عبدا بن سالم آل صباح أخبره أن أجداده سموا بذلك الاسم بعد ارتحالهم من الجنوب شمالاً إلى الكويت، أي أنهم «عتبوا إلى الشمال».
انظر : د/ أحمد أبو حاكمة، تاريخ شرقي الجزيرة العربية، ص ٦١.

المتحالفين العتوب: آل صباح وآل خليفة، وقد أصبح آل صباح حكاماً للكويت حوالي عام ١٧٥٠م، وتوطدت إمارة الكويت أواخر القرن الثامن عشر.

ونظراً لموقع الإمارة البحري فقد اعتمد سكانها في حياتهم على البحر وامتهنوا حرفة صيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ ونقل المتاجر بين العراق والهند وموانئ الخليج. وكان موسم الغوص يمتد من ١٥ مايو إلى ١٥ سبتمبر، فكانت القوارب تبحر خلال هذه الفترة من الكويت متجهة نحو مغاصات اللؤلؤ بالخليج، وعند العودة كانوا يبيعون اللؤلؤ للتجار. وكان تجار اللؤلؤ يقومون بدورهم بتصدير اللؤلؤ إلى بومباي، حيث يتم تصنيفه وإعداده للتصدير للأسواق الأوربية وغيرها، كما كانت أجزاء منه ترسل إلى بغداد. والواقع أن معظم الأهالي كانوا يشتغلون في صناعة اللؤلؤ، إما صيداً أو شراءً أو بيعاً.

وإلى جانب صناعة اللؤلؤ كان المصدر الرئيسي للدخل في الكويت هو نقل المتاجر، ففي الخريف كانت السفن تبحر من الكويت في اتجاه البصرة لشراء التمر، ثم تعود مباشرة إلى الساحل العُماني لبيع التمر إذا وجدت السوق المناسبة. وبعد أن تحصل السفن على إمداداتها من الماء تبحر هابطة إلى ساحل أفريقية الشرقي أو ساحل الهند الغربي (ساحل الملبار)، حيث تبيع التمر وتشتري التوابل وغيرها من البضائع. كذلك كانت القوافل تخرج من الكويت تحمل مايستورده تجارها من الخارج، وتأتيها قوافل من بادية الشام ومن حائل ونجد واليمن[١].

(١) د/ أحمد أبو حاكمة، تاريخ الكويت ، ص ٢٢٠ ومابعدها.

وكان آل خليفة يعيشون في الكويت مع العتـوب الآخرين واستمروا فيها حتى عام ١٧٦٦م حين هاجروا إلى شبـه جزيرة قطر. وتعزو الرواية المحلية تلك الهـجرة إلى خـلافـات كانت قـائمـة بين قبـائل بني كـعب التي تقطن الساحل الشـرقي للخليج وبين شيخ الكويت، وأن هذه الخـلافات تطورت إلى مرحلة حدت ببني كعب أن يفرضوا على شيخ الكويت شروطاً رآها آل صـباح مـقـبولة وشـايعـهم بعض العتـوب في ذلك ورآها آخـرون - ومن جملتـهم آل خليفة - مهـينة وأبوا أن يقيمـوا في الكويت على ذلك الضيم، ومن هنا جـاءتهم فكرة الهجرة ومـغادرة الكويت. وهناك رأي آخـر ينسب إلى المصادر البريطانية ويعزو هجـرة آل خليفة إلى أنهم قد فطنوا إلى إمكانية حصولهم على ثروة كبيرة لو نزلوا بالمنطقة الغنية باللؤلؤ الواقعة على ساحل الخليج بالقرب مـن البحرين وقطر، وفـيما لو أنشـأوا فيهـا مركزاً للتـجارة والغوص على اللؤلؤ، ومباشرة ذلك بأنفسهم.

وأياً كان الأمر فقد يمم آل خليفـة بحراً شطر شبه جزيرة قطر واتخذوا من الزبارة على الساحل الغربي لشبه الجزيرة موطناً لهم. وكانت البحرين وقتئذ تحت حكم قبيلة عُمانية أقام شيخـها نصر آل مذكور في بوشهر على الساحل الفارسي من الخليـج وإزاء تفاقم خطر العتـوب التجاري واحـتكارهم لجزء كبير من تجارة الخليج قام شيخ بوشهر بمهاجمة الزبارة مرتين في عام ١٧٧٨م و ١٧٨٢م ورد عتـوب الكويت بمهاجـمة البحـرين واحتلالهـا في نوفمـبر ١٧٨٢م، وانتقل إليها آل خليفة وجعلوها مركز حكمهم.

والتوسع العتبي في البحرين يمثل في الواقع ظاهرة طبيعية لتطور وازدهار العتوب في هذه الفترة، إذ إن البلدة التي أنشـأها العتوب في الزبارة سرعان ما نمت وأصبحـت مدينة محصنة ومسورة، إلا أنهـا لم تكن لتكفي حاجات

المجتمع العتبي الجديدة ، فمن نجد والكويت توافد على تلك المدينة أناس كثيرون، فازداد تعداد سكانها. ولا شك أن هؤلاء المهاجرين كانوا يأملون أن يساهموا بقسط في تجارة اللؤلؤ في البحرين والتمتع بمائها العذب في الوقت الذي قل مثله في شبه جزيرة قطر، حيث قامت مدينة الزبارة. ولربما كان آنذاك قد بدأوا يشعرون بالتوسع السعودي، وهذا بالطبع أمر يجعلهم يفكرون في غزو البحرين، ذلك أن السعوديين لم يمتلكوا أسطولاً بحرياً يهددون فيه البحرين بل كان معظم ارتكازهم على القوى البرية. ويجب ألا ننسى كذلك أن غنى البحرين بمصائد اللؤلؤ وأشجار النخيل ربما كان سبباً من الأسباب التي أغرت العتوب على فتحها.

وفي أواخر القرن الثامن عشر هجر آل خليفة الزبارة بعد انتقالهم إلى البحرين، بسبب الهجمات السعودية المتكررة عليها، وحاول آل خليفة بعد ذلك العودة إلى الزبارة نظراً لأهميتها الاستراتيجية لهم، ولكن قبائل أخرى أخذت تنافسهم في قطر، واشتهر بين هذه القبائل آل ثاني الذين حكموا أحياناً في الزبارة، وأحياناً في الدوحة، وخضعوا لنفوذ آل خليفة بعض الوقت ولم يستقلوا عنهم حتى أوائل السبعينات من القرن التاسع عشر، حين أعاد العثمانيون سيطرتهم على ساحل الخليج العربي، وبعثوا ولاية الأحساء من جديد[1] .

وكان قبائل القواسم قد بدأت تظهر كقوة مناوئة للملاحة في الخليج العربي منذ أواسط القرن الثامن عشر، وسيطرت على الساحل العُماني (الساحل المهادن أو المتصالح) الذي قامت فيه مشيخات أبو ظبي ودبي

(١) د/ بدر الدين عباس الخصوصي، الخليج العربي، ط١، ص٩٦-٩٧.

والشارقة والعجمان وأم القوين ورأس الخيمة والفجيرة. ويمتد الساحل الذي تقع عليه هذه المشيخات ثلاثمائة ميل بين قطر وعُمان، وإزاء فقر هذا الساحل فقد اتجهت القبائل النازلة فيه إلى ممارسة القرصنة، ولم يكن في هذا شيء من الغرابة، إذ لم توجد في منطقة الخليج وقتئذ دولة بحرية كبرى تستطيع فرض سلطتها على القراصنة. وكما أن المنازعات القبلية كانت هي القاعدة في داخل شبه الجزيرة العربية فكذلك الحال في الخليج العربي، إذ كانت كل قبيلة تدهم سفن القبائل الأخرى لأتفه الأسباب.

واتخذت قبائل القواسم من رأس الخيمة مركزاً لإدارة حركة القرصنة التي غدت الهدف الرئيسي لحياتها، وفي مطلع القرن التاسع عشر ازدادت حدة الحركة القرصانية بتأثير السعوديين الذين اندفعوا من الداخل صوب البحر وأعطوا للقرصنة مسحة دينية، إذ اعتبروها نوعاً من الجهاد الديني، وبذا أصبح القواسم يجدون مبرراً شرعياً للاستيلاء على السفن التي لا تخضع للدولة السعودية. ومما لاشك فيه أن القواسم قد تأثروا في معظم أعمالهم واتجاه سياستهم بسلطان السعوديين عليهم، وكانوا عوناً بحرياً لهم، فرغم أن السعوديين كانوا أقوى قوة ضاربة في البر- أي في الجزيرة وأطرافها - إلا أن تلك القوة كان من العسير عليها أن تتحرك في الخليج دون عون الأسطول القاسمي(١).

وكانت عُمان الواقعة في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب مركزاً للأباضيين(٢) الذين درجوا منذ النصف الأول من القرن الثاني للهجرة

(1) Wilson, A. The Persian Gulf, London 1954, pp.75-77.

(٢) يعزو مؤرخو الفرق الإسلامية المذهب الأباضي إلى إحدى الفرق التي ينقسم إليها الخوارج، ولو أن الأباضية لايقرون صحة هذه النسبة، ويؤكدون أن خروجهم لم يكن على الإمام علي بن أبي طالب، بل على الدولة الأموية، وهم يشيرون بذلك إلى ثورة عبدا بن أباضي على =

(الموافق للقرن الثامن الميلادي) على اختيار إمامهم عن طرق الشورى، فكان يختاره زعماء القبائل والمشايخ ورجال الحل والعقد في البلاد، بالإضافة إلى أخذ التعهدات اللازمة عليه « بألا يعقد رأياً، ولاينفذ حكماً، ولايقضي أمراً إلا برأي المسلمين ومشورتهم» ، ومع ذلك فقد تعرضت الإمامة الأباضية للاختفاء والتوقف في بعض الفترات. وكانت عُمان قد خضعت للبرتغاليين منذ أن استولى ألبوكيرك عام ١٥٠٨م على موانيها الرئيسية، ومع أن البرتغاليين تعرضوا لمقاومة شديدة من جانب العثمانيين والقبائل المحلية فقد استمر نفوذهم في المنطقة الساحلية حتى منتصف القرن السابع عشر.

ويمثل انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي إماماً عام ١٦٢٤م نقطة تحول هامة في تاريخ عُمان، فقد قامت منذئذ إمامة اليعاربة التي وحدت البلاد من ورائها وطردت البرتغاليين من مسقط ثم من بقية عُمان، وسيطرت على التجارة في بحر العرب، ومدت نفوذها إلى شرق أفريقيا. وقد اهتم أئمة اليعاربة ببناء الحصون والقلاع سواء بهدف دعم نفوذ الدولة في سائر مناطقها، أو لصد العدوان الخارجي.، وبذا لم تخل مدينة أو قرية في عُمان من قلعة أو حصن. وزاد الاهتمام بهذه الحصون نتيجة الظروف التي كانت تعيش فيها البلاد؛ فإن الصراع القبلي والمنازعات المستمرة بين العشائر كانت تحتم على كل إمام أو والٍ[1] أن يقيم قلعة لحماية نفسه. وكان لدولة اليعاربة جيش ثابت يتقاضى أفراده رواتب منتظمة، ومهمته الأساسية هي الدفاع عن

= الخليفة الأموي عبد الله بن مروان. وللأباضية عقائدهم وشرائعهم التي تتفق بوجه عام مع السنة ولاتختلف عنها إلا في مسائل معينة، ويعترف الأباضية بالقرآن والحديث كمصدر للعلوم الدينية، ولكنهم يقولون «بالرأي» بدل الإجماع والقياس.

(١) كان الإمام يعين ولاة من جانبه للإشراف على مختلف مناطق الدولة.
انظر : دار بدر الدين عباس الخصوصي، المرجع السابق، ص ٦٥-٦٨.

البلاد، إلا أنه في حالة الحرب كانت القبائل تنخرط في سلك الجيش لتكون قوة كبيرة تسند الدولة في حروبها مع أعدائها .

وعندما سقطت أسرة اليعاربة نتيجة للتدخل الفارسي عام ١٧٣٨م حرص العُمانيون على الاحتفاظ بالإمامة، فانتخبوا عام ١٧٤١م أحمد بن سعيد إماماً، وهو والي اليعاربة في صحارا والذي كان له فضل تخليصهم من الفرس. وهكذا انتقلت الإمامة إلى آل بوسعيد، وانصرف أئمة هذه الأسرة كسابقيهم من اليعاربة إلى التجارة البحرية والمغامرات الخارجية. وبدأ الانقسام في أسرة آل بوسعيد عام ١٧٨٦م حين استغل حمد بن الإمام الحاكم سعيد بن أحمد نقمة القبائل على أبيه فاستولى على جزء كبير من البلاد لنفسه، وجعل عاصمته في مسقط على الساحل بعيداً عن نزوى المقر التقليدي للإمامة في الداخل، وعن الرستاق مركز الإمامة زمن اليعاربة، وترك أباه يمارس الإمامة ويقيم في الرستاق. ولم يقم حمد بمحاولة لتنصيب نفسه إماماً ، وحين توفي عام ١٧٩١م استولى عمه سلطان بن أحمد على مسقط، وتوصل إلى اتفاق مع أخيه، بحيث احتفظ لنفسه بمسقط واحتفظ أخوه سعيد بالإمامة في الرستاق . ومن ثم فقد أصبح هناك مركزان للسلطة في عُمان. وعُرف مسقط بلقب السيد ثم سلطان، وحاكم الرستاق بلقب إمام.

الدعوة السلفية وعلو شأن آل سعود

لقد سبق القول إن قبيلة بني خالد كانت أقوى القبائل العربية في شرقي الجزيرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأن بني خالد قد عملوا منذ أن طردوا العثمانيين من الأحساء عام ١٧٦٠م على بسط نفوذهم على المناطق المجاورة، بالإضافة إلى التدخل في شئون نجد. وعلى أواخر القرن

السابع عشر كان سكان نجد يعترفون بأن شيخ بني خالد هو أقوى جيرانهم، فسعوا إلى إرضائه بالهدايا وتقديم فروض الطاعة، وفي الوقت الذي تجمعت فيه خيوط النفوذ في شرقي الجزيرة العربية بيد شيخ بني خالد، كانت نجد والجزيرة العربية عموماً - باستثناء عُمان واليمن والحجاز- لاتزال تشكو من الافتقار للوحدة السياسية، إذ كانت مقسمة إلى عدد كبير من الإمارات أو المدن المستقلة التي تحكم نفسها برئاسة أمير أو شيخ إحدى القبائل والذي يستند إلى عصبية قوية، ولم تكن العلاقات بين هذه الإمارات ودية في معظم الأوقات. وكان الدين قد أهملت شعائره بين سكان المدن أو الحضر، وتوقف العمل بهذه الشعائر بين البدو والضاربين في البادية، وكان أهل نجد عموماً «يعتقدون في الأولياء أنهم ينفعون ويضرون، وأنهم يعلمون الغيب، مع تضييع الصلاة وترك الزكاة، وارتكاب المحرمات». ويشير الرحالة وليم بلجريف (١٨١٦م-١٨٨٨م) في كتابه «رحلة عبر وسط بلاد العرب (١٨٦٢م-١٨٦٣م) إلى أن الكثير من البدع والخرافات والعادات الجاهلية كانت لاتزال تجد مكاناً لها بين القبائل، كما أن قراءة القرآن والصلاة والزكاة والحج قد نسيت من قبل سكان نجد. وبالجملة فكما يقول الشوكاني «غلبت على بلاد نجد أمور الجاهلية وصار الإسلام فيها غريباً»[1].

(١) يرفض الدكتور عبدا العثيمين الصورة المتداولة عن الحالة الدينية في نجد قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ويقول : «من المقارنة بين المصادر المختلفة، يبدو أن الحالة الدينية التي كانت سائدة في نجد آنذاك لم تكن بالصورة التي أظهرتها بها بعض المصادر المؤيدة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية. ويتضح أنها كانت غير متفقة مع قول من قال عن أهل المنطقة في تلك الفترة أنهم كانوا قد خلعوا ربقة الإسلام والدين، وأنها كانت بعيدة عن الادعاء القائل بأن كل أثر للإسلام كان قد اختفى من نجد. . . لقد كان هناك جهلة يمارسون أعمالاً شركية، لكن عدد هؤلاء كان -فيما يظهر- قليلاً إذا قورن بمجموع السكان. وكان هناك كثير من البادية الذين لا يقومون بأركان الإسلام نتيجة جهلهم بها. . . ولكن كان هناك =

وبرزت في نجد أسر مستقلة عملياً، مثل آل سعود الذين تمركزوا في وادي حنيفة واتخذوا من مدينة الدرعية مقراً لهم، والذين كان جدهم مانع من ربيعة المريدي قد هاجر حوالي منتصف القرن الخامس عشر من منطقة القطيف واستقر في وادي حنيفة. ومثل آل معمر الذين كان مقرهم مدينة العيينة، وآل زامل في الخرج، وآل دواس في الرياض. ولم يشعر أمراء نجد وشيوخ قبائلها بالخوف على سلطانهم من الضياع قبل عام ١٧٤٥م حين بدأت قوة الدرعية في الظهور على حيز السياسة العامة في نجد، بعد أن لجأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى محمد بن سعود أمير الدرعية وتحالف معه في نشر الدعوة السلفية (الوهابية)[1] وإقامة دولة الموحدين في نجد .

والدارس لحياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب يستطيع أن يرى فيها ثلاثة أدوار متمايزة أولها يتمثل في تعليمه الديني المبكر الذي تلقاه من والده الشيخ عبد الوهاب قاضي العيينة الحنبلي وعلماء آخرين في نجد. وفي هذا الدور تهيأ وهو في سن الثالثة عشرة لأداء مناسك العمرة والحج، ثم زار قبر الرسول ﷺ في المدينة، حيث مكث هناك شهرين كاملين رأى خلالهما كثيراً من ظواهر الشرك التي تُرتكب باسم الدين، مما أثار في نفسه روح المقاومة لهذه الأمور. والدور الثاني من حياة الشيخ هو فترة الترحال وطلب

=ملتزمون بأحكام الشريعة وقائمون بأركان الدين الإسلامي وما يأمر به الدين من واجبات وسنن» .

انظر بحثه بعنوان «نجد منذ القرن العاشر الهجري حتى ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب»، مجلة الدارة، شوال ١٣٩٨ - سبتمبر ١٩٧٨ .

(١) لاتدل كلمة «الوهابية» دلالة صحيحة على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والحقيقة أنها كلمة أطلقها الخصوم على هذه الحركة ليشعروا بأنها مذهب جديد من المذاهب الدينية، فكما تنسب الطرق الصوفية مثلاً إلى أسماء مؤسسيها نسب الخصوم مجموعة الآراء التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى اسم والده. أما أنصار الدعوة فيؤثرون أن يسموا أنفسهم «بالموحدين» أو «السلفيين» أو «الإخوان» .

العلم والتي بدأت بالذهاب أولاً إلى الحجاز، ثم رجوعه إلى نجد حيث أقام قليلاً من الوقت ثم رحل من نجد إلى الأحساء، ومن هناك إلى البصرة فبغداد، ثم عاد إلى الأحساءومنها إلى حريملاء حيث كان أبوه. وكان وقتذاك في نحو الخامسة أو السادسة والثلاثين من عمره، وقد اكتمل نضجه واتسعت دائرة ثقافته وازدادت تجاربه أثناء رحلته. أما الدور الثالث فيبدأ برجوعه إلى حريملاء ثم نقل ميدان نشاطه إلى العيينة مسقط رأسه حيث راح ينشر دعوته ويطبقها ويعمل في سبيل تهذيب عادات الأهالي وتنقية التعاليم الدينية مما شابها من ضلال وشرك، إلا أنه تعرض للاضطهاد ثم الطرد.[1]

ولايخفى أن انتشار البدع والخرافات، وارتداد القبائل إلى ممارسة عادات الجاهلية الذميمة، وتركها العمل بالشرائع السماوية المنزلة في القرآن الكريم، وعيشها حياة أبعد ماتكون عن طبيعة الإسلام في عصوره الأولى كان مبعث ظهور الدعوة السلفية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وكان لب دعوته الرجوع بالدين إلى الوحدانية، أي الدعوة إلى ا وحده لا شريك له، وإفراد العبادة كلها له، وعدم إشراك غيره معه في العبادة،فمعنى « لا إله إلا ا » نفي صفة الألوهية عن كل المخلوقات وإثباتها وحده، وأن العبادة إذا صرفت لغيره صارت شركاً. واعتمد الشيخ في دعوته إلى الوحدانية أو التوحيد على الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، فلا مصدر إلا القرآن الكريم ولا حكم إلا حكم السنة المطهرة.

وإلى جانب الدعوة إلى التوحيد نادى الشيخ بمحاربة البدع المضللة، كتقديس الأولياء وزيارة قبورهم، وكذلك زيارة الأشجار المقدسة وهي عادة وثنية، ومن هنا كانت دعوته إلى قطع هذه الأشجار. وقد حاول الشيخ

(١) د/ عبدا الشبل، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الرياض ١٩٨٠،ص -١٠.

بكل ما وسعه من جهد أن يقنع الناس بالحجة الدامغة من أحاديث الرسول وآثار السلف الصالح بالعدول عما يفعلونه عند زيارتهم القبور واتخاذها أعياداً -أي أمكنة للعبادة- وحين لم يجد آذاناً مصغية له دعا إلى هدم المشاهد وتسويتها، ونادى كذلك بمحاربة الاستشفاع- أي طلب الشفاعة من الغير- لأن ذلك من الأمور التي تنقض التوحيد الخالص، كما نادى بالجهاد المشروع في سبيل نشر عقيدة التوحيد الخالصة لوجه ا وعدم إشراك غيره معه في عبادته وإفرادها له[1] .

والمبادئ التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت كلها مبادئ قديمة جديدة في نفس الوقت، فهي قديمة لكونها لم تخرج عن تعاليم الإسلام ولم تأت فيه بجديد، وهي جديدة لأن الإسلام الصحيح أصبح غريباً عن النفوس في ذلك الوقت، فرأى الناس أن إنكار أفعالهم التي يقومون بها ودعوتهم إلى أصول الدين التي أصبحت بعيدة عن نفوسهم إنما هي شيء جديد عليهم. ولم يكن الشيخ يستهدف من دعوته - كما ظن البعض - تعديل العقائد التي جاء بها الإسلام، أو إعطاء التعاليم الإسلامية تفسيراً جديداً وإنما استهدف في المقام الأول محاربة البدع والعودة بالإسلام إلى أصله الصحيح.

ولقد كانت الدعوة السلفية من أبرز حركات التحدي للعثمانيين التي ظهرت في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر، وتأتي أهميتها من أنها ظهرت في الوقت الذي ظهرت فيه مظاهر التحدي السياسي للعثمانيين في بقية الولايات العربية، ومن أنها اقترنت بتحدي زعامة العثمانيين للعالم السني. ولم تكن الدعوة السلفية حركة محلية، إذ حاول القائمون بها نشر

(١) د/ عبدا العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، ط١، ص٦١-٧٧.

تعاليمها بالقوة في العراق وبلاد الشام.

وقبل أن تنطلق الحركة السلفية إلى محاولة نشر تعاليمها في أطراف الجزيرة العربية وخارجها سيطرت أولاً على نجد والمناطق المجاورة. وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب على إثر انتقاله من حريملاء إلى العيينة بعد غيابه عنها بنحو عشرين عاماً وشرع في نشر دعوته قد طرد من مسقط رأسه كما سبق القول، فاتجه نحو الدرعية حيث حظي بحماية أميرها محمد بن سعود الذي تحالف مع الشيخ عام ١٧٤٥م على نصرة الحق ومحاربة الشرك، وتم اتفاق بينهما على أن يكون الأمير الزعيم السياسي للموحدين، وأن يكون الشيخ زعيمهم الديني[١] ، ومن هنا أصبحت الدعوة السلفية دعوة دين ودنيا. ويجمع المؤرخون والمعاصرون على أن اللقاء والعهد والميثاق الذي تم بين الأمير والشيخ إنما كان اللبنة الأولى في بناء صرح الدولة السعودية الأولى التي وحدت بين آل سعود وآل الشيخ[٢].

ومنذ عام ١٧٤٥م تحولت الدرعية إلى عاصمة دينية وسياسية وحربية، وهاجر إليها أنصار الشيخ من العيينة وغيرها من بلدان نجد. ولم تلبث السلفية أن سيطرت عام ١٧٥٠م على العيينة التي كان أميرها عثمان بن معمر، ثم اصطدمت بأمير الرياض دهام بن دواس، ودام الصراع بين الطرفين من ١٧٤٦م إلى ١٧٧٢م حين هُزم أمير الرياض. وفي عام ١٧٦٥م هُزمت قبائل نجران واستسلمت حائل عام ١٧٨٧م، وتوطدت نهائياً سيطرة

(١) أورد صاحب «لمع الشهاب» قصة هذا الاتفاق، وجاء فيه قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب للأمير محمد بن سعود :« . . . أريد منك عهداً على أنك تجاهد في هذا الدين، والرئاسة والإمامة فيك وفي ذريتك . .» .

(٢) هي التسمية التي عرف بها أحفاد الشيخ محمد عبد الوهاب.
انظر : د/عبدالرحيم عبد الرحمن الدولة السعودية الأولى، القاهرة ١٩٨٢، ص٢٥-٣٥.

السعوديين في نجد، وبدأت المرحلة الثانية من توسعهم خارجها.

وكان آل سعود قد اتخذوا من بني خالد في شرقي الجزيرة العربية موقف المدافع لا المهاجم خلال العشرين عاماً، أي من ١٧٤٥م إلى ١٧٦٥م، ولكنهم اتخذوا بعد ذلك موقف المهاجم، إذ توالت غزواتهم على أرض الأحساء واشتدت بنوع خاص في الفترة مابين ١٧٩٣م و ١٧٩٥م حتى تم لهم القضاء على نفوذ بني خالد في الأحساء، ونصبوا أميراً سعودياً عليها.

ولم يلبث أن تحول السعوديون إلى الحجاز، حيث كان يسيطر الشريف غالب بن مساعد والذي شرع في شن هجمات على السعوديين، دينياً وعسكرياً. ودام الصراع بينهما حتى عام ١٨٠٣م حين دخل السعوديون مكة من غير أن يتعرضوا لأية مقاومة من جانب الشريف غالب، الذي آثر الهروب إلى جدة. وبعد عامين استولى السعوديون على المدينة المنورة وأخذوا « كل ما في الحجرة النبوية من الجواهر» ، وتغالوا في مطاردة المخالفين من أهل الحجاز وهدم قباب المساجد ومحاربة كل ما لايتفق مع ما آمنوا به من بساطة الإسلام الأولى[١].

وقامت كذلك الجيوش السعودية بالتوغل في بلاد الشام الجنوبية، فوصلت إلى حوران والكرك، وأوقعت الهزيمة بجند الدولة الذين خرج بهم والي الشام للحج عام ١٨٠٥م، منعوا قافلة الحج الشامية عام ١٨٠٧م.

والسؤال الذي يجب أن نطرحه : ماذا كان موقف الدولة العثمانية من الدعوة الإصلاحية السلفية ومن التوسع السعودي؟ لقد سبق القول إن الدولة العثمانية لم تسيطر سيطرة فعلية على قلب شبه الجزيرة العربية، فظل إقليم نجد خاضعاً للدولة حتى منتصف القرن الثامن عشر، أي إلى الوقت

(١) د/ عبدالرحيم عبدالرحمن، الدولة السعودية الأولى، ص٨٥-١٠٠.

الذي بدأت فيه قوة الدرعية تظهر على حيز السياسة العامة في المنطقة، حيث إن هذا الإقليم لم يرد ضمن قائمة التقسيمات الإدارية التي وضعت في أوائل القرن السابع عشر، وظل معمولاً بها حتى القرن التاسع عشر، ومن ثم فلم تشهد نجد ولاة عثمانيين يأتون إليها ولا حامية تركية تجوب خلال ديارها. ويبدو أن العثمانيين لم يكن يعنيهم كثيراً أن يسيطروا على تلك المنطقة الداخلية القليلة الأهمية، فاكتفوا بفرض نفوذهم على أطرافها في الأحساء شرقاً والحجاز غرباً، وكان كل ما يحرصون عليه كل الحرص هو الحفاظ على سيادتهم في الحجاز، لما للمدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة من إجلال وتعظيم في العالم الإسلامي. ولذلك فعندما ظهرت الدعوة الإصلاحية السلفية واحتضانها آل سعود في نجد، وقاموا بنشر تعاليمها في الجزيرة العربية بالإقناع، واستولت قواتهم على الحجاز وهددوا العراق والشام، لم ترض الدولة العثمانية عن تلك الدعوة ورأت فيها خطراً عليها، فراحت تعمل من أجل القضاء عليها.

وكانت خطة الدولة في محاربة السعوديين أن تلقي عبء هذه المهمة على كاهل الولاة في الأقطار المجاورة، هادفة بذلك إلى غرضين : الأول القضاء على التوسع السعودي في المشرق العربي، والآخر إضعاف هؤلاء الولاة واستنزاف مواردهم حتى يظلوا ضعافاً خاضعين للدولة خضوعاً تاماً، فاتجهت أول الأمر إلى والي بغداد، إذ كان أقرب الولاة إلى نجد، إلا أن ذلك الوالي كان مشغولاً بالارتباكات المحلية في ولايته، وكان جيشه من الضعف بحيث لا يقوى على مجابهة السعوديين، وفشل عدة مرات في صد هجماتهم على حدود العراق، فاتجهت الدولة إلى والي الشام لعله ينجح فيما فشل فيه والي العراق، فكان نصيبه من الفشل أفدح من زميله .

ولما يئست الدولة من قدرة ولاتها في بغداد والشام[1] ولت وجهها شطر مصر فطلبت من واليها محمد علي عام ١٨٠٧م أن يقوم بحملة على بلاد العرب «لتصفية الحرمين الشريفين واستخلاصهما» من أيدي السعوديين، واسترداد سلطة الدولة المشرفة على الزوال في جزيرة العرب. ولكن محمد علي لم يلب طلب الدولة إلا في عام ١٨١١م بعد تخلصه من بكوات المماليك في مذبحة القلعة، فأرسل حملة بقيادة ابنه طوسون الذي استولى على مكة دون مقاومة ، إلا أنه هُزم أمام الأمير عبد ا بن سعود في الداخل وتحطم نصف جيشه، فخرج محمد علي بنفسه إلى الحجاز عام ١٨١٣م وقبض على شريف مكة (غالب بن مساعد) الذي اتهمه بالتآمر مع السعوديين، وصادر كل ما يملك من أموال وأثاث ومتاع، وعين مكانه الشريف يحيى بن سرور وقرر له راتباً شهرياً، وبذلك أصبح شريف مكة من موظفي محمد علي في الحجاز. ولم يلبث أن انتصر محمد علي في يناير ١٨١٥م على القوات السعودية في موقعة بسل[2] ، وهي الموقعة التي يعتبرها البعض « من أكبر وقائع الحرب الوهابية، بل من أهم المعارك في تاريخ مصر الحربي».

ولم يمكث محمد في الجزيرة العربية ليتابع النصر الذي أحرزه، بل عاد إلى مصر تاركاً ابنه طوسون بالحجاز[3]، وسرعان ماتمكن طوسون من هزيمة

(١) د/ عبدالرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق، ص١٩٩-٢٣٥.

(٢) بين الطائف وتربة. انظر :عبدالرحيم عبدالرحمن،المرجع السابق، ٣٣٩-٣٥٥.

(٣) كانت خطورة الموقف في أوربا وتأزمه بسبب هروب نابليون من منفاه من جزيرة آلبا من الأسباب التي أرغمت محمد علي على العودة إلى مصر، إذ خشي أن تصبح مصر هدفاً لحملة فرنسية جديدة. ومن جهة أخرى فقد قيل إن السبب المباشر لعودة محمد علي إلى مصر سريعاً هو ما سمعه عن مؤامرة لطيف باشا أحد مماليكه ضده ومحاولته الاستيلاء على الحكم في مصر. انظر المرجع السابق.

السعوديين هزيمة جديدة لأول مرة، وأسرع بالزحف على القسم الشمالي من نجد فبلغ في زحفه مدينة الرس، ثم احتل الشبيبة وأصبح الطريق إلى الدرعية مفتوحاً أمامه. وهنا أسرع الأمير عبدا بطلب فتح باب المفاوضات، ويعتقد بعض الباحثين أن السبب الذي جعل الأمير عبدا يطلب ذلك هو إدراكه لضعف موقفه - رغم مالديه من قوة عسكرية كبيرة - نظراً لتمرد البادية بعد انهيار الحالة المعنوية بين النجديين إثر انتصار طوسون، وكنتيجة لميل القبائل بطبيعتها إلى عدم الخضوع للحكم المركزي.

ودارت المفاوضات بين الطرفين على مشروع الصلح بالشروط التالية :

١- احتلال القوات المصرية الدرعية .

٢- أن يضع الأمير عبدا نفسه تحت تصرف طوسون باشا، فيسافر إلى الجهة التي يريده أن يسافر إليها.

٣- أن يؤمن الأمير عبدا سبل الحج، وأن يكون خاضعاً لحاكم المدينة من قبل محمد علي إلى حين الموافقة على الصلح.

٤- ألاّ تصبح هذه الشروط - في حالة الاتفاق عليها - نافذة المفعول إلا بعد إقرارها من محمد علي.

غير أن هذه الشروط لم تقبل من جانب الأمير عبدا واعتبرها إهانة موجهة إليه، وقرر إرسال وفد سعودي إلى مصر للتفاوض مع محمد علي مباشرة حول شروط الصلح، إلا أن الوفد فشل في مسعاه بسبب تشدد الباشا. وتأهب السعوديين للحرب والقتال، فأرسل محمد علي حملة جديدة عام ١٨١٦م بقيادة ابنه إبراهيم باشا[١].

(١) د/ عبدالرحيم عبدالرحمن، المرجع السابق، ص٣٣٩-٣٤٥.

وزحف إبراهيم باشا بقواته من الحجاز صوب نجد، ونجح في الاستيلاء على مدن عنيزة وبريدة وشقراء، وإخضاع كل منطقة القصيم. وقد اتبع إبراهيم في زحفه سياسة الملاينة مع القبائل وهي سياسة كان من شأنها استمالة عدد كبير من أهل نجد، إذ كان يعقد دائماً المجالس ويمنح الهبات للناس، كما منع النهب والسلب، واستطاع بفضل ذلك كله وبفضل خبرائه العسكريين الفرنسيين أن يواصل زحفه حتى الدرعية التي ضرب الحصار عليها لمناعتها، وكان حصاراً طويلاً استمر من ٦ إبريل إلى ٩ سبتمبر ١٨١٨م، وانتهى باستسلام الأمير عبدا بن سعود ودخول إبراهيم الدرعية، حيث أرسل من هناك الأمير السعودي في حراسة مشددة إلى مصر، ثم أُرسل من القاهرة إلى استانبول برجاء من محمد علي للعفو عنه، ولكن السلطان محمود الثاني شهر بالأمير في شوارع استانبول ثلاثة أيام كاملة ثم أمر بإعدامه شنقاً.

أما إبراهيم باشا فقد مكث بالدرعية حوالي تسعة أشهر، وقبل أن ينسحب منها في عام ١٨١٩م عائداً إلى مصر قام بإحراقها وتدميرها تدميراً تاماً بناءً على التعليمات التي أرسلها إليه والده. ويذكر سادلير Sadlier[1]

(١) كان سادلير أول أوربي يصف البلاد التي ظهرت فيها الدعوة الإصلاحية السلفية، وقد أرسلته حكومة الهند البريطانية في بعثة لمقابلة إبراهيم باشا ومحاولة استكشاف أهدافه، وكانت بعثة سادلير سياسية استطلاعية، ظاهرها تهنئة القائد المصري بما أحرزه من نجاح في بلاد العرب وإبداء استعداد السلطات البريطانية في الهند للتعاون معه في إيجاد سلطة منظمة في ساحل القرصنة (الساحل العثماني) تحت إدارة مصرية. أما غرض البعثة الحقيقي فتكشف عنه تلك العبارة التي وردت في خطاب تكليف سادلير الرسمي : «إنك مكلف أثناء وجودك في المعسكر التركي - المصري أن تتحقق تماماً من المقاصد التي يرمي إليها إبراهيم في عملياته الحربية القادمة، وغزواته نحو الخليج الفارسي (العربي) دون أن يلحظ إبراهيم أن تلك هي مهمتك الرسمية». انظر :د/ عبد الرحيم عبدالرحمن، المرجع السابق، ص٣٤٥-٣٥٠.

مبعوث حكومة الهند البريطانيـة إلى إبراهيم باشا أنه حين التقى معه بالقرب من المدينة المنورة ذكر له أن أوامـر حرق الدرعيـة وتخريبهـا إنما صدرت من البـاب العالي، وليس من والده. وهكذا انهـارت الدولة السعـودية الأولى على يد إبراهيم باشا، وأصبحت نجد منذئذ تابعة لباشوية القاهرة .

* * *

obeikandl.com